من أسرار التعبير بالضحك والبكاء في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

دكتور

شعبان عبد اللاه السيد عيد

المدرس بقسم البلاغة والنقد في

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

جامعة الأزهر

ملخص بحث

من أسرار التعبير بالضحك والبكاء في القرآن الكريم دراسة بلاغية

دكتور

شعبان عبد اللاه السيد عيد

المدرس بقسم البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق جامعة الأزهر

تتناول الدراسة موضوع الضحك والبكاء في القرآن الكريم ، من حيث مواقعه ، وصيَغُه ، ومقاماتُه البلاغية.

وقد سارت الدراسة في البحث على مقدمة وثلاثة محاور :

المحور الأول : مجيء الضحك منفردا عن البكاء في القرآن وذلك في سبعة مواضع .

المحور الثاني : مجيء البكاء منفردا عن الضحك في القرآن وذلك في أربعة مواضع .

المحور الثالث : اجتماع الضحك والبكاء في القرآن وذلك في ثلاثة مواضع .

ثم جاءت خاتمة البحث مشتملة على أبرز نتائجه ، ثم قائمة بمصادر ومراجع البحث .

والدراسة تقتصر على مادتي الضحك والبكاء الصريحتين اللتين وردتا في القرآن (ض ح ك) و (ب ك ى) وذلك (في سبعة عشر موضعا) في القرآن ، أما ما يشير إلى الضحك أو البكاء بغير هاتين المادتين ، فليس من اهتمام هذه الدراسة.

وتهتم الدراسة بتنوع صيغ الضحك أو البكاء من حيث مجيؤه في صورة الفعل الماضي، أو المضارع ، أو الأمر، أو صيغة من صيغ الجمع، أو اسم الفاعل ، وغير ذلك من الصيغ الصرفية والنحوية ، وما أسرار كل صيغة في سياقها ومقامها .

وقد جاء فِعْلا الضحك والبكاء في الغالب الأعم في القرآن لازمين، ولكنهما جاءا في موضع واحد في القرآن متعديَيْنِ ، وقد حذف هناك المفعول وأطلق الفعل فما بلاغته حينئذ ؟

كما اهتمت الدراسة ببيئة الألفاظ المتناسبة مع الضحك والبكاء في القرآن الكريم ، حيث صاحبت كلَّ صيغة من صيغ الضحك والبكاء ألفاظٌ أشبهُ بها في المعنى بما يشكل بديعيا فن مراعاة النظير وهي أكثر ظاهرة بلاغية تكررت في هذا البحث .

وغير ذلك من الظواهر البلاغية التي ترتبط بلاغيا بالضحك والبكاء في القرآن الكريم.

وبالله التوفيق ومنه السداد.

الكلمات المفتاحية : الضحك . البكاء . الضحك منفردا . البكاء منفردا . مراعاة النظير .

Summary

One of the secrets of expression by laughing and crying in the Quran is a rhetorical study

Dr. Shaaban AbdulLah El Syad Eid

The teacher in the department of rhetoric and criticism in the Faculty of Islamic and Arab Studies for Boys in Al-Azhar University

The study deals with the topic of laughter and crying in the Qur'an, in terms of its positions, its formulation, and its rhetorical positions. The study was conducted in the research on the introduction and three axes:

The first axis: the coming of laughter alone from crying in the Qur'an in seven places.

The second axis: the coming of crying alone from laughing in the Qur'an in four places.

The third axis: the meeting of laughter and crying in the Qur'an in three places.

Then came the **conclusion** of the research including the most prominent results, and then a list of sources and references of the research.

The study is limited to the two explicit topics of laughter and crying mentioned in the Qur'an (Z.K. and B.K.) and that (in seventeen places) in the Qur'an, but what indicates laughter or crying other than these two articles, is not of interest to this study.

The study is concerned with the diversity of the forms of laughter or crying in terms of its content in the form of the past act, the present, the order, the form of plural, the name of the perpetrator, and other pure and grammatical formulas, and what are the secrets of each formula in its context and place.

The most common acts of laughter and crying in the Qur'an are necessary, but they came in one place in the Qur'an, transgressing, and there was a deletion of the effect and the act was released.

The study also focused on the environment of words commensurate with laughter and crying in the Holy Quran, where each version of laughter and crying was accompanied by words similar to them in the sense of what constitutes the art of observing the analogy, which is the most rhetorical phenomenon repeated in this research.

Other rhetorical phenomena that are rhetorically associated with laughter and crying in the Qur'an.

By God, good luck and payment.

Keywords: Laughter, crying, laughing alone, crying alone.

Considering the counterpart.

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين على نعمائه وآلائه التي لا تعد ولا تحصى ، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين . وبعد

فهذه دراسة بلاغية تتناول موضوع الضحك والبكاء في القرآن الكريم ، من حيث مواقعه ، وصيغه ، ومقاماته البلاغية ، وأثر السياق في إبراز بلاغة كل صيغة من هذه الصيغ حيث جاءت في القرآن .

وسبب اختياري هذا الموضوع يرجع إلى أنني كنت مشغولا بالكتابة عن هذا الموضوع منذ فترة بعيدة، وظللت أبحث عن دراسة وافية بالموضوع عَلِّى أجد فيها ما يغنيني عن الكتابة فيه مرة أخرى ، فلم أعثر على شيء يسمن أو يغني من جوع في هذا الأمر .. حتى وصلت إلى صفحة على أحد المواقع الإ لكترونية وجدت منشورا عليها نفس الموضوع تحت عنوان " الضحك والبكاء في القرآن الكريم .. دراسة بلاغية" للباحث ياسر بن صالح الدوسري ، والدراسة منشورة على موقع (بحوث) بتاريخ ٢٦ مايو ٢٠٠٩ ، فقلت في نفسي قد وجدت ضالتي ، وأخذت أقرأ في الموضوع ، وإذا بي أجده لا يزيد عن أربع صفحات، وهو عبارة عن مقال يُنشر للقارئ العام ولا ينهض أن يكون بحثا للمتخصص الأكاديمي في الدراسة البلاغية، ويقوم هذا المقال على ما يُشبِه عناوين ورءوس أقلام لا تروي لباحث في البلاغة ظمأً ، والمقال هناك متوغل في الدراسة النفسية والاجتماعية للضحك والبكاء أكثر منه بلاغيا وإن عَنْونه صاحبه بالدراسة البلاغية . وأنا أردت أن أكتب كل بيانات هذا المقال السابقة

ليَدخُلَ على هذه الصفحة من أراد من أساتذتي الأجلاء ويقارن بين ما كُتب هناك ، وما هو مكتوب على صفحات بحثي هذا ، فقد جردت نفسي تماما بعد أن قرأت هذا المقال من أي معلومة لصقت بذهني منه ، وتركتُ نفسي على علَّاتها وسجيتها تكتب في هذا الموضوع بطريقتي الخاصة وبتناولٍ آخر، ومعالجة تختلف كل الاختلاف عما كتب هناك على هذا الموقع ، والحمد لله ؛ فبعد أن كتبت ما كتبته في هذا البحث ، رجعت للمقال الذي يصف نفسه بالدراسة البلاغية مرة ثانية فلم أجد مما كتبتُه شيئا هناك ، ولم أجد من هناك شيئا مكتوبا عندي، اللهم إلا اتفاقا ضئيلا جدا في نقاط مشهورة لا يُخْطِؤها المتوافدون على الموضوع الواحد لشهرتها وعمومها .

هذا ، وقد رأيت أن يقَسَّم البحث على ثلاثة محاور بعد هذه المقدمة: المحور الأول : مجيء الضحك منفردا عن البكاء في القرآن وذلك في سبعة مواضع .

المحور الثاني : مجيء البكاء منفردا عن الضحك في القرآن وذلك في أربعة مواضع .

المحور الثالث : اجتماع الضحك والبكاء في القرآن وذلك في ثلاثة مواضع .

ثم جاءت خاتمة البحث مشتملة على أبرز نتائجه ، ثم قائمة بمصادر ومراجع البحث .

وأنبه في هذه المقدمة على أنني سوف أقتصر في دراستي هذه على مادتي الضحك والبكاء الصريحتين اللتين وردتا في القرآن (في سبعة

عشر موضعا)، أما ما يشير إلى الضحك أو البكاء بغير هاتين المادتين ، فليس من اهتمام هذه الدراسة؛ وذلك لضيق الوقت والظروف التي تحيط بي وتجعلني متعجلا في إنجاز هذا البحث، والذي لا يسلم من النقص ومواطن التقصير الواضحة ، وما كان من توفيق في هذه الدراسة المتواضعة. والمتواضعة جدا . فهو من الله الذي منه كل توفيق وسداد، وما كان من تقصير ومن عجز ونقصان فكل ذلك مني ومن عجزي الذي لا ينفك عني أبدا ... والله من وراء القصد ومنه المعونة وعليه التكلان .

تمهيـد

الضحك والبكاء هما سلوكان يعبران عن عواطف وانفعالات متعددة ومتناقضة يستخدمها جميع البشر عبر مختلف الأمكنة والأزمنة، يتركز الضحك في منطقة الفم؛ حيث ينفرج في غالب الأحيان فيؤثر في عضلات الخدين، بينما يتوزع البكاء بين منطقة العينين والفم، وبالرغم من أن الضحك غالبا ما يستخدم للتعبير عن الفرح فقد يستخدم للتعبير عن التهكم والسخرية أو الحزن (شر البلية ما يضحك)، ولا يقتصر البكاء على التعبير عن الحزن والإحساس بالألم؛ بل قد يكون دلالة على شدة الفرح (دموع الفرح)، ومعروف أن الضحك والبكاء قد يستخدمان كسلوك تعبيري تمويهي لا يحركه إحساس أو انفعال داخلي حقيقي، كما فعل إخوة سيدنا يوسف عليه السلام عندما " جاءوا أباهم عشاء يبكون"([1])

الضحك والبكاء معجمياً :

جاء في معجم العين: " ضحِكَ يَضَحَكُ ضَحِكاً وضِحْكاً، ولو قال: ضَحَكاً لكان قياساً لأنّ مصدر فَعِلَ فَعَل. والضُحْكَةُ: ما يُضحَكُ منه. والضُّحَكَةُ: الكثير الضَحِك يُعابُ به. والضِّحّاك في النَعْت أحسَنُ من الضُّحَكَةِ. والضَّاحكة: كلُّ سِنٍ من مُقَدَّم الأضراس ما يبدُو عند الضَّحِك. والضَّحّاكُ بن عدنان: الذي يقال مَلَكَ الأرض، ويقال له: المُذْهَب، كانَتْ أمّه جنّيَّةً فلحق بالجنِّ.. تقولُ العَجمُ إنّه عَمِل بالسِحْر وأظهَرَ الفساد أُخِذَ فشُدَّ في جَبَل دَنْباوَند. وقوله فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها، يَعني طَمِثَتْ. والضَّحْك:

---

[1] - الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم .د محمد الأمين موسى أحمد إصدار دار الثقافة والإعلام . حكومة الشارقة . الطبعة الأولى ٢٠٠٣ ص ٢٧٣

الثَّلجْ، ويقال: جَوْف الطَّلْع، وهي من لغة بني الحارث، يقالُ: ضحِكتِ النَّخلة إذا انشَقَّ كافورُها. وقال آخرون: هو الشُهُدُ، ويقالُ: الزُبْد، ويقال: العَسَلُ. وهو بهذَيْن أشبْهُ في قوله:

فجاءَ بمزج لم يَرَ الناسُ مِثلَه ... هو الضَّحْكُ إلا أنّه عملُ النَّخْلِ

والضَحُوك من الطُرُق: ما وَضحَ فاستَبانَ . ([١])

وأما عن البكاء فيقال :

" بَكَى يَبْكِي بُكىً وَبُكَاءً بِالْقَصْرِ وَالْمَدِّ، وَقِيلَ الْقَصْرُ مَعَ خُرُوجِ الدُّمُوعِ وَالْمَدُّ عَلَى إرَادَةِ الصَّوْتِ ، وَقَدْ جَمَعَ الشَّاعِرُ اللُّغَتَيْنِ فَقَالَ:

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا بُكَاهَا ... وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ

وَيَتَعَدَّى بِالْهَمْزَةِ فَيُقَالُ أَبْكَيْتُهُ وَيُقَالُ بَكَيْتُهُ وَبَكَيْتُ عَلَيْهِ وَبَكَيْتُ لَهُ وَبَكَّيْتُهُ بِالتَّشْدِيدِ وَبَكَتْ السَّحَابَةُ أَمْطَرَتْ." ([٢])

---

[١]. كتاب العين أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) تحقيق : د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي دار ومكتبة الهلال باب الحاء والكاف والضاد . عدد الأجزاء: ٨ ج٣/ ص ٥٨

[٢] . المصباح المنير في غريب الشرح الكبير المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)

المكتبة العلمية – بيروت عدد الأجزاء: ٢ في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد) ج ١ ص ٥٩ والبيت المذكور في مطلع قصيدة فى رثاء حمزة رضى الله عنه عمّ النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلف فى قائلها: قيل لحسان، وقيل لعبد الله بن رواحة، ونسبَها أبو زيد لكعب ابن مالك وهؤلاء الثلاثة– رضى الله عنهم– شعراء النبى صَلَّى اللهُ ==

وجاء في مختار الصحاح :

بَكَى) يَبْكِي بِالْكَسْرِ (بُكَاءً) وَهُوَ يُمَدُّ وَيُقْصَرُ، فَالْبُكَاءُ بِالْمَدِّ الصَّوْتُ، وَبِالْقَصْرِ الدُّمُوعُ وَخُرُوجُهَا. وَ (بَكَاهُ) وَ (بَكَى) عَلَيْهِ بِمَعْنًى، (بَكَّاهُ تَبْكِيَةً) مِثْلُهُ. وَ (أَبْكَاهُ) إِذَا صَنَعَ بِهِ مَا يُبْكِيهِ، وَ (بَاكَاهُ فَبَكَاهُ) إِذَا كَانَ (أَبْكَى) مِنْهُ،.. وَ (اسْتَبْكَاهُ) وَ (أَبْكَاهُ) بِمَعْنًى وَ (تَبَاكَى) تَكَلَّفَ الْبُكَاءَ. وَ (الْبَكِيُّ) بِفَتْحِ الْبَاءِ الْكَثِيرُ الْبُكَاءِ. وَ (الْبُكِيُّ) بِضَمِّ الْبَاءِ جَمْعُ (بَاكٍ) مِثْلُ جَالِسٍ وَجُلُوسٍ إِلَّا أَنَّ الْوَاوَ قُلِبَتْ يَاءً."([1])

" وَقد بَكَى الرجلُ يَبْكِي، فَهُوَ باكٍ. وباكَيْتُ فلَانا فبكَيْتُه إِذا كنتَ أَكْثَر بُكَاءً مِنْهُ. (ثَعْلَب عَن الْأَصْمَعِي وَأبي زيد) قَالَا: بَكَيْتُ الميّتَ وبكَّيْتُه كِلَاهُمَا إِذا بَكَيْتَ عَلَيْهِ، وأَبكَيْتُه إِذا صنَعْتَ بِهِ مَا يَحمِلُه عَلَى الْبكاء" . ([2])

==

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد أورد ابن هشام فى السيرة القصيدة فى غزوة أحد– فارجع إليها فى سيرة ابن هشام . ينظر هامش نفس الصفحة المذكورة من المصباح المنير

[1] . مختار الصحاح زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) تحقيق: يوسف الشيخ محمد: المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م عدد الأجزاء ١: ص: ٣٩

[2] . تهذيب اللغة محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)تحقيق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م عدد الأجزاء: ٨. ج١٠ص ٢١٩

و" (أبكاه) جعله يبكي، و(بكاه) أبكاه وَالْمَيِّت رثاه و(تباكى) تكلّف الْبكاء، و(استبكاه) أثار بكاءه و(التبكاء) كَثْرَة الْبكاء"([1]) .

****

ودراستنا هذه تدور في إطار الضحك والبكاء الصريحين بمادتهما (ض ح ك)و (ب ك ى)، وتحاول هذه الدراسة أن تضع صورة بلاغية لظاهرة الضحك والبكاء في القرآن كيف جاءت هذه الظاهرة تلبية لحاجة السياق والمقام سواء اجتمعا في موضع واحد، أو تفرقا ، ولماذا اختار السياق صيغة الضحك أو البكاء في صورة الفعل الماضي، أو المضارع ، أو الأمر، أو الجمع، أو اسم الفاعل ، والأصل في الضحك والبكاء في القرآن أن يكون فعلهما لازما ولكنهما جاءا في موضع واحد في القرآن متعديَيْنِ ، وقد حذف هناك المفعول وأطلق الفعل فما بلاغته حينئذ ؟ وغير ذلك من متعلقات هذه الظاهرة في القرآن نتناولها في ضوء مقام الحال والسياق .. ونسأل الله التوفيق والسداد .

وأُذَكِّر مرة ثانية بأن البحث سوف يسير ـ إن شاء الله ـ في ثلاثة محاور :

<u>المحور الأول</u> : مجيء الضحك منفردا عن البكاء؛ وذلك في سبعة مواضع في القرآن .

[1] . المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعو ج١ص ٦٧

المحور الثاني : مجيء البكاء منفردا عن الضحك؛ وذلك في أربعة مواضع في القرآن .

المحور الثالث : جمع الضحك والبكاء؛ وذلك في ثلاثة مواضع في القرآن .

المحور الأول : مجيء الضحك منفردا عن البكاء

جاء الضحك منفردا في القرآن في سبعة مواضع؛ وهي قوله تعالى :

ـ " وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ" (هود ٧١)

ـ" فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ " (المؤمنون ١١٠)

ـ " فتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" (النمل ١٩)

. " فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ" (الزخرف ٤٧)

. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ " (عبس٣٨ ، ٣٩)

. " إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ " (المطففين٢٩)

. " فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ " (المطففين ٣٤)

وسوف أتناول هنا كل موضع من هذه المواضع بالتحليل البلاغي في ضوء سياقه ومقامه مستعينا بالله تعالى .

الموضع الأول من مواضع الضحك منفردا :

" قوله تعالي" وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذ . فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ . وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . " (هود٦٩ . ٧١)

السياق والمقام :

جاء الضحك هنا في سياق مجيء الملائكة بالبشرى لإبراهيم عليه السلام بالولد بعد ما بلغ من الكبر عتيا وامرأته عليها السلام كذلك؛ جاء في نظم الدرر للبقاعي :

" فسمعت البشارة بالولد التي دل عليها فيما مضى قوله {بالبشرى} {فضَحِكَت} أي تعجبت من تلك البشرى لزوجها مع كِبَره، وربما ظنته من غيرها لأنها – مع أنها كانت عقيماً – عجوز، فهو من إطلاق المسبَب على السبب ، إشارة إلى أنه تعجب عظيم {فبشرناها} أي فتسبب عن تعجبها أنا أعدنا لها البشرى مشافهة بلسان الملائكة، تشريفاً لها وتحقيقاً أنه منها {بإسحاق} تلده {ومن وراء إسحاق يعقوب} أي يكون يعقوب ابناً لإسحاق، والذي يدل على ما قدّرتُه – من أنهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فعجبت – ما يأتي عن نص التوراة،([1]) والحكَمُ العدل على ذلك كله قولُه تعالى في الذاريات {قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه

[1]. سيأتي هذا النص في النقل القادم من تفسير التحرير والتنوير

هو الحكيم العليم } [الذاريات: ٢٨-٢٩] ولما شافهوها بذلك، صرحت بوجه العجب من أنه جامع بين عجَبَين في كونه منه ومنها: بأن {قالت يا ويلتي} وهي كلمة تؤذن بأمر فظيع تخِفُّ على أفواه النساء ويستعملنها إلى اليوم، لكنهن غيَّرن في لفظها كما غُيِّر كثير من الكلام " ([١])

جذور الضحك في السياق :

إذن فحدَثُ الضحِك هنا له جذور في السياق ، منشؤه ما جاءت به الملائكة بالبشرى إلى إبراهيم عليه السلام بالولد بعد أن بلغ هو وزوجته من الكبر عتيا ، فكانت هذه البشرى جالبة لضحك امرأته عليها السلام ومحركة لبواعثه في نفسها ، وكأن هذ الضحك جاء تجاوبا طبيعيا مع هذه البشرى التي جاءت بها الملائكة ، فسُرَّت لهذه البشري، فحركت بواعث هذا الضحك ، وقد أُكِّدت البشرى باللام الموطئة للقسم، وبحرف التحقيق (قد) والتعبير بالفعل الماضي الذي يدل على تحقق الوقوع في قوله " ولقد جاءت رسلنا .." وكل هذه التوكيدات تعكس الاهتمام بهذا الخبر، والاحتفاء به ، وتمكُّنِ البشرى في نفس إبراهيم عليه السلام وامرأتِه عليها السلام ، مما جعلها تضحك سرورا وفرحا بهذه البشرى .

وحرف القلقلة (الدال) في " ولقد " والباء في (إبراهيم) له دلالة في هذا المقام ؛ حيث يصور . من خلال صوت القلقلة . وقع البشرى على نفس إبراهيم وامرأته عليهما السلام وقد حركت كل ساكن في نفسيهما ،

---

[١] . نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة عدد الأجزاء: ٢٢ ج٩ ص ٣٣

وهيجت هذه البشرى ما كان قاراً ساكنا في خواطرهما كما يُقَلقَل حرفُ القلقلة بعد أن كان ساكنا ، وكأننا نسمع من خلال صوت القلقلة هنا ما اضطرب ومار من مشاعر داخل نفس الشيخين الكبيرين الَّذَين بُشّرا بالولد في سن اليأس من الإنجاب والولادة.

مما ترتب على الضحك في هذا السياق :

والضحك من سارَّة عليها السلام قد ترتب عليه مزيد من البشارة، أو ترتب عليه بشارة أخرى بأنها سترى ولد ولدها ، " فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " وكأن ما تفرع عن الضحك هنا يحمل كناية عن أمرين : الأول : أن الولد سيعيش وليس على ما هو معهود من أن أولاد الشيوخ لا يعيشون . والأمر الثاني أن سارَّة عليها السلام ستعيش حتى ترى ولدَ ولدِها؛ يقول الشيخ الطاهر بن عاشور:

" وَإِنَّمَا ضَحِكَتِ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- مِنْ تَبْشِيرِ الْمَلَائِكَةِ إِبْرَاهِيمَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِغُلَامٍ، وَكَانَ ضَحِكُهَا ضَحِكَ تَعَجُّبٍ وَاسْتِبْعَادٍ. وَقَدْ وَقَعَ فِي التّوراة فِي الْإِصْحاح الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ «وَقَالُوا لَهُ: أَيْنَ سَارَّةُ امْرَأَتُكَ؟ فَقَالَ: هَا هِيَ فِي الْخَيْمَةِ ، فَقَالُوا: يَكُونُ لِسَارَّةَ امْرَأَتِكَ ابْنٌ، وَكَانَتْ سَارَّةُ سَامِعَةً فِي بَابِ الْخَيْمَةِ فَضَحِكَتْ سَارَّةُ فِي بَاطِنِهَا قَائِلَةً: أَفَي الْحَقِيقَةِ أَلِدُ وَأَنَا قَدْ شِخْتُ؟ فَقَالَ الربّ: لماذَا ضَحِكَتْ سَارَّةُ؟ فَأَنْكَرَتْ سَارَّةُ قَائِلَةً لَمْ أَضْحَكْ، لِأَنَّهَا خَافَتْ، قَالَ: لَا بَلْ ضَحِكْتِ» ، وَتَفْرِيعُ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ على جملَة فَضَحِكَتْ بِاعْتِبَارِ الْمَعْطُوفِ وَهُوَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ لِأَنَّهَا مَا ضَحِكَتْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَشَّرَهَا الْمَلَائِكَةُ بِابْنٍ، فَلَمَّا تَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ بَشَّرُوهَا بِابْنِ الِابْنِ زِيَادَةً فِي الْبُشْرَى. وَالتَّعْجِيبُ بِأَنْ يُولَدَ لَهَا ابْنٌ وَيَعِيشَ وَتَعِيشَ هِيَ حَتَّى يُولَدَ لِابْنِهَا ابْنٌ. وَذَلِكَ أَدْخَلَ فِي الْعَجَبِ

لِأَنَّ شَأْنَ أَبْنَاءِ الشُّيُوخِ أَنْ يَكُونُوا مَهْزُولِينَ لَا يَعِيشُونَ غَالِبًا إِلَّا مَعْلُولَيْنِ، وَلَا يُولَدُ لَهُمْ فِي الْأَكْثَرِ وَلِأَنَّ شَأْنَ الشُّيُوخِ الَّذِينَ يُولَدُ لَهُمْ أَنْ لَا يُدْرِكُوا يَفْعَ أَوْلَادِهِمْ بَلْهُ أَوْلَادِ أَوْلَادِهِمْ." ([١])

وفي ضوء ما سبق نجد القرآن جعل الضحك في هذا المقام محورا يرتب عليه المعاني التالية ، ولنتخيل أن ننزع الضحك من الآية وتقول " وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق .. إلى آخره.. فإننا نجد مصداق ما ذكرتُ من أن الضحك هنا مرتكَز تأسس عليه المعنى بعدُ ، لأن ضحكها عليها السلام كان صدى للبشرى من ناحية ومن ناحية أخرى كان سببا في زيادة البشرى أو في بشرى أخرى بولد الولد، ويلزم من ذلك ـ كما ذكرنا ـ أنها ستعيش إلى أن ترى ولدَ ولدِها .

أسباب الضحك المرجوحة بلاغيا في هذا السياق وسر ورودها في كتب التفسير :

وإذا كانت بعض الآراء تفيد بأن بشرى إبراهيم كانت بشيء آخر وهو البشرى بإهلاك قوم لوط وأن سارَّة عليها السلام ضحكت لهذ المعنى([٢]) ـ فإني أرجح أن البشارة كانت بالولد والإنجاب ، وأن ذلك هو ما

---

[١]. التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ هـ عدد الأجزاء : ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين) جـ ١٢ ص١١

[٢] . هذا الرأي تتناقله معظم كتب التفسير، وينظر في ذلك : تفسير المنار محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠م ج١٢ ص١٠٧

أثار ضحكها وحرَّك بواعثه في نفسها؛ لأن البشارة بالولد مع فقدان أسباب الإنجاب أدخل في باب الغرابة ، وأجلب لبواعث الضحك في نفسها عليها السلام من إهلاك قوم لوط ؛ لأن إهلاكهم من قِبَل الله تعالى كان أمرا متوقعا وطبيعيا بعد تخلقهم بأفحش الفواحش ، فلم يكن في إهلاكهم رّيْب ولا غرابة .

كذلك فإن ما ورد من آراء أخري في سبب ضحكها ليس له قوة السبب الأكبر والحدث الجلل الذي رجحتُه كسبَبٍ للضحك (وهو البشارة بالولد والإنجاب في هذا السن) فكل رأي من هذه الآراء ليس فيه من العَجَب والغرابة بما يبعث على الضحك مثل ما في هذا السبب الأكبر والرئيس ، ولا مانع من ذكر هذه الآراء لنرى أنه من أبسط نظرة في المقارنة بين هذه الآراء نرى ترجيح ما ذكرتُ ، ومن هذه الآراء " أنها ضحكت من تأمينهم لإبراهيم بقولهم: لا تَخَفْ. وقال قتادة: ضحكت هزؤا من قوم لوط أن يكونوا على غفلة وقد نفذ من أمر الله تعالى فيهم ما نفذ.. وقال محمد بن قيس: ضحكت لظنها بهم أنهم يريدون عمل قوم لوط قال القاضي: وهذا قول خطأ لا ينبغي أن يلتفت إليه، وقد حكاه الطبري، وإنما ذكرته لمعنى التنبيه على فساده، وقالت فرقة: ضحكت من فزع إبراهيم من ثلاثة وهي تَعْهدُه يغلب الأربعين من الرجال، وقيل: المائة. وقال السدي: ضحكت من أن تكون هي تخدم وإبراهيم يحفد ويسعى والأضياف لا يأكلون. وقيل: ضحكت سرورا بصدق ظنها، لأنها كانت تقول لإبراهيم إنه

لا بد أن ينزل العذاب بقوم لوط، وروي أن الملائكة مسحت العجل فقام حيا فضحكت لذلك" ([١])

ولعل ما جعل هذه الآراء تتوالى على تفسير سبب الضحك هنا أنها جاءت مزامنة للسبب الرئيس والأكبر وهو البشارة بالولد ، لكن يبقى لهذا السبب الرئيسِ الرجحانُ والقوةُ على كل هذه الآراء؛ لأنه الأنسب للمقام والسياق لما يحمل من غرابة وعجب يبعثان على الضحك والفرح والسرور والدهشة ، بجانب أن هذا أمر يهمها في ذاتها ونفسها عليها السلام .

كذلك فإني لا أرى أن يكون معنى ضحكت في هذا المقام يعني: حاضت ، كما ورد في بعض الآراء لأن المقام والسياق يرشح الضحك بمعناه المعروف؛ إذ إن هناك بشرى أسعدت قلبها فبعثت على الضحك والفرح والسرور وهذا أدعى لأن يكون الضحك هنا على معناه المعروف، وقد ضعَّف كثيرٌ من العلماء هذا الرأي(القائل بالحيض) مقلِّلين من شأنه، يقول ابن عطية :

" فَضَحِكَتْ قال مجاهد: معناه: حاضت، وأنشد على ذلك اللغويون:

وضحك الأرانب فوق الصفا ... كمثل دم الجوق يوم اللقا ☆

وهذا القول ضعيف قليل التمكن، وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى: حاضت. اهـ .([٢])

---

[١] . المرجع السابق ج٣/ ص ١٨

* لم أقف على قائل هذا البيت ويكفي أنه منقول من كتب أئمة التفسير القدامى الموثوق بهم.

[٢] . تفسير ابن عطية المسمى المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ==

وجاء في تهذيب اللغة، وفي لسان العرب : قَالَ الفَرّاءُ : وَأما قَوْلهم فضحِكت: حَاضَت فَلم نَسْمَعهُ من ثِقَة. " ([1])

وأما ما ورد في بعض المعاجم من استشهاد على صحة هذا المعنى الضعيف كما في قول الشاعر :

وإني لآتي العِرْسَ عِنْدَ طُهورِها ... وأهْجُرُها يَوْماً إذا تَكُ ضاحِكا. "([2])

فإني أراه محمولا على أن من معاني الضحك معجميا (بوجه عام) الحيضَ أو الطمسَ ، أما هنا في هذه الآية ـ موضوع البحث . ، فإن هذا المعنى وإن كانت له ملابسة بالحمل والولادة والولد إلا أنه ليس الأنسب للسياق والمقام على نحو ما أوضحنا وعلى ما ذهب إليه غالب أهل العلم ، ولعل الذي جاء بهذا التفسير (الطمس) ـ فيما أرى . : هو ما بين الطمس وبين الولادة والولد من علاقة واضحة، وعلى كل حال فالخروج

==

٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ ج٣/ ص ١٨

[1] . ، تهذيب اللغة محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م ج٤/ ص٥٦ ، ولسان العرب محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ ج١٠/ ص٤٦

[2] . الإبانة في اللغة العربية المؤلف :سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحاري تحقيق: د. عبد الكريم خليفة – د. نصرت عبد الرحمن – د. صلاح جرار – د. محمد حسن عواد – د. جاسر أبو صفية وزارة التراث القومي والثقافة – مسقط – سلطنة عمان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ج٣/ ص٤١٢

من هذا الرأي من أيسر ما يكون ، ويكمن ذلك في أن الطمس أو الحيض كان نتيجة طبيعية للبشرى وأنه جاء بعد حادث الضحك من هذه البشارة إذ هو (أي الطمس) من مستتبَعات البشارة بالولد والإنجاب والحمل، وهذا التفسير أَوْضحَه أحد علماء اللغة المعاصرين بقوله : " وحمله على الحيض تحَكُّم واضح. وقد رأى الفيروز آبادي أن تفسير الضحك بالحيض وَهْم أو سوء فهم وقع فيه قائله، وإنما مراد الرواية أنها –بعد الضَحِك والبُشرى– حاضت تحقيقًا لبشرى، فتوهم بعضهم أن قول الرواية التفسيرية (فحاضت) هو تفسير للفظ (فضحكت) في الآية .. "اهـ ([1])

[1] . المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها د. محمد حسن حسن جبل : مكتبة الآداب – القاهرة الطبعة: الأولى، ٢٠١٠ م ج٣/ ص ١٢٧٤

ومن بلاغة الضحك على ضوء ما أوضحتُ ورجَّحْتُ :

الإيجاز البلاغي :

فالضحك من البشارة بالولد جاء إيجازا عن معانٍ عدة من السرور، والفرح، والسعادة، ،واستشراف المستقبل بالتفاؤل بالولد وولد الولد ، فكأني بالقرآن هنا يريد أن يقول : وامرأته قائمة فضحكت وفرحت وسُرَّتْ وسعِدَتْ واستبشرت واستشرفت تفاؤلا خيرا في المستقبل .. إلى آخر هذه المعاني التي يشير إليها حدثُ الضَحك، فكان تعبير القرآن بالضحك إيجازا أيَّ إيجاز عن هذه المعاني مجتمعة ، والإيجاز هنا يُعَد إيجازا بالقصر، وله بلاغته التي جَلَّتها كتب البلاغة في القديم والحديث حتى أنه يسمي بـ "إيجاز البلاغة ، ويُحقَّق بأداء المعاني الكبيرة بالألفاظ القليلة دون حذف ، وهذا الضرب هو الذي تطمح إليه أبصار البلغاء، وتتوق إليه قلوبهم، وهو الحلبة التي يتنافس فيها المتنافسون، وللقرآن الكريم الحظ الأوفر من هذه الخصلة اهـ . " ([1])

سر التعبير بالقيام :

ـ أن اقتران الضحك بالقيام " وامراته قائمة فضحكت " يوحي بالقوة والحيوية وأن الحالة النفسية لسارَّة عليها السلام كانت مَزْجًا من القوة والسعادة أثناء تأديتها لخدمة الضيوف ، ولا شك أن هذا يعكس تلقائيا مدى تغلغل البشارة في نفسها مما أمدها بالقوة والإقبال أثناء قيامها بواجبها تلقاء الضيوف .

---

[1] . المفصل في علوم البلاغة عيسى العاكوب در القلم دبي ٢٠٠٥ ص ٣٢٢

سر التعبير بالماضي :

ـ التعبير بالفعل الماضي في " ضحكت " وأن لم يقل مثلا :وأمرأته قائمة ضاحكة ، يوحِي بتأكيد الحدث ـ حيث إن تأكيد الأحداث من دلالات التعبير بالماضي . بجانب أنه لم يكن ضحِكا عاديا ولكنه ضحك له خصوصية استحق بها أن يُذكر في هذا المقام؛ فإنه مما لا شك فيه أنها عليها السلام قد مرت بمواقف كثيرة تبعث على الضحك في حياتها .كشأن سائر البشر . ولكن لما كان ضحكها عليها السلام هذه المرة ذا شأن خاص وأنه قد ترتب عليه مزيد من البشارة(بالولد ثم ولَدِ الولد) لا جرم ذكره وبصيغة الماضي بعد اسم الفاعل " قائمة " ليؤكد على وقوع الضحك ويلفت إلى خصوصيته من بين مرات ضحكها في حياتها عليها السلام ، وهذا يؤكد ما قلته قبل ذلك بمحورية حدث الضحك في هذا السياق . والله تعالى أعلم .

الموضع الثاني من مجيء الضحك منفردا:

قوله تعالى : "" فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (المؤمنون ١١٠)

السياق والمقام :

جاءت هذه الآية في مشهد من مشاهد الآخرة، في سياق التوبيخ والتقريع والإهانة لمن خفت موازينهم من الكافرين والمشركين ، الذين كانوا يضحكون من أهل الإيمان في الدنيا استهزاءً وسخرية، وبينما هؤلاء المشركون في النار يصرخون فيها ويطلبون الخروج منها قائلين: " ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون " إذا بهم يُجْبَهون في وجوههم

بالرفض الصاعق المُذِلّ :" اخسأوا فيها ولا تُكَلّمونِ " ، والسبب في ذلك أنهم كانوا في الدنيا يسخرون من المؤمنين ويضحكون ويستهزءون، ونقرأ السياق من أوله : قال تعالى : " وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ.رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ. قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ . (المؤمنون ١٠٣ . ١١١)

جاء في تفسير الرازي :

" قَالَ مُقَاتِلٌ: إِنَّ رُؤَسَاءَ قُرَيْشٍ مِثْلَ أَبِي جَهْلٍ وَعُتْبَةَ وَأُبَيّ بْنِ خَلَفٍ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَضْحَكُونَ بِالْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ مِثْلِ بِلَالٍ وَخَبَّابٍ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ، وَالْمَعْنَى اتَّخَذْتُمُوهُمْ هُزُوًا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ بِتَشَاغُلِكُمْ بِهِمْ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ ذِكْرِي وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: " وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ " ([1])

"وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء . فقد خسروا أنفسهم . وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا يملك إذن ؟ وما الذي يتبقى له

[1]) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) : دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ ج ٢٣/ ص ٢٩٨

وقد خسر نفسه التي بين جنبيه ، وخسر ذاته التي تميزه ؟ فكأنما لم يكن له وجود وهنا يعدل عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب والمواجهة ، فإذا العذاب الحسي – على فظاعته – أهون من التأنيب والخزي الذي يصاحبه . وكأنما نحن نراه اللحظة ونشهده في حوار مُمِضٌّ طويل (ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون !). . وكأنما يخيل إليهم – وقد سمعوا هذا السؤال – أنهم مأذونون في الكلام ، مسموح لهم بالرجاء . وأن الاعتراف بالذنب قد يجدي في قبول الرجاء : قالوا: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون .. وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة . . ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدهم وأساءوا أدبهم ، فلم يكن مأذونا لهم في غير الإجابة على قدر السؤال . بل لعله كان سؤالا للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب . فهم يُزجرون زجرا عنيفا قاسيا: قال: اخسأوا فيها ولا تكلمون . . اخرسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ؛ فإنكم لَتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين: إنه كان فريق من عبادي يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري ، وكنتم منهم تضحكون). . وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب ، واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم ; إنما بلغ بكم السفه والتوقح أن تسخروا ممن آمنوا ، وراحوا يرجون غفران ربهم ورحمته، وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهذر عن ذكر الله ، ويباعد بينكم وبين التدبر والتفكر في دلائل الإيمان المبثوثة في صفحات الوجود . . فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم تسخرون منهم وتضحكون" ([1])

[1]) هذا النقل من تفسير الظلال ..في تفسيره لهذه الآية من سورة المؤمنون.

وبعد هذا العرض التفسيري للآيات يستوقفنا من بلاغة حدث الضحك هنا في هذا المقام :

سر التعبير بصيغة المضارع:

ـ مجئ الضحك هنا بصيغة المضارع يوحي بتكرار حدث الضحك وتجدده استهزاء وسخرية من المؤمنين كلما واتت هؤلاء الفرصة لذلك، وهذا يشير إلى أن هذا الصنف الساخر المستهزئ من المؤمنين لا يخلو منهم زمان ولا مكان، وإنما هم مكررون متجددون في كل حقبة من الزمان وفي كل بقعة من بقاع الدنيا .

سر التعبير "بالصبر" في جملة جزاء المؤمنين المضحوك منهم:

. إن قوله تعالى " بعد هذه الآية عن المؤمنين " إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون " يوحي بألم السخرية والاستهزاء . بسبب هذا الضحك . على نفوس المؤمنين لأن لواذهم بالصبر وتجلدهم به لا يكون إلا لشدة وقع الإيلام النفسي عليهم بسبب هذا الضَحِك المستهزِئ الساخر ، فاستحقوا أن يُجازيهم الله بالفوز على ما صبروا . يقول صاحب التحرير والتنوير " قَوْلُهُ: بِمَا صَبَرُوا إِدْمَاجٌ لِلتَّنْوِيهِ بِالصَّبْرِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ سُخْرِيَّتَهُمْ بِهِمْ كَانَتْ سَبَبًا فِي صَبْرِهِمُ الَّذِي أَكْسَبَهُمُ الْجَزَاءَ . وَفِي ذَلِكَ زِيَادَةُ تَلْهِيفٍ لِلْمُخَاطَبِينَ بِأَنْ كَانُوا هُمُ السَّبَبُ فِي ضُرِّ أَنْفُسِهِمْ وَنَفْعِ مَنْ كَانُوا يعدّونهم أعداءهم." ([1])

[1]) التحرير والتنوير ج ١٨ص ١٣٠

اقتران الضحك بالسخرية :

. واقتران الضحك هنا بالسخرية(فاتخذتموهم سخريا) هو من باب مراعاة النظير، إذ إن الضحك في هذا السياق هو في حد ذاته استهزاء وسخرية واستخفاف بالمؤمنين، ومن هنا فالجمع بينهما في هذا السياق هو تحقيق لصورة هذا اللون البديعي إذ معناه " أن يجمع المتكلم بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة لا على جهة التضاد "" ([1])

ـ وهذا الجمع الصريح بين الضحك والسخرية يجعل الجرم مركبا وكأنه جرم فوق جرم ، حيث جمع بين معنيين من وادٍ واحد في الشر، بينهما من الرحم في إيذاء المؤمنين مالا يخفي ، وكل هذا يصب في تفخيم الجزاء للمؤمنين على صبرهم؛ كما هو موضح في قوله تعالى " إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون " .

تجاوب النظم في جملة جزاء المؤمنين المضحوك منهم مع تفخيم وعظم هذا الجزاء:

فنلاحظ في جملة الجزاء من مظاهر هذا التفخيم لجزاء المؤمنين على صبرهم من هذا الضحك وتلك السخرية . هذا الحشدَ الهائلَ من ألوان التوكيد المتعددة ، فهذا توكيد بـ " إنَّ " في قوله : " إني جزيتهم " واسمها ضمير المتكلم الذي يعود على ذي الجلال سبحانه، وهو في حد ذاته توكيد وتفخيم للجزاء في أعلى صور التفخيم ، ثم إسناد الجزاء إلى تاء المتحدث وهو الله تعالى (جزيتُهم) وفي هذا تفخيم آخر للجزاء ، ثم

---

[1]) المفصل في علوم البلاغة " عيسى العاكوب ص ٥٦٤

التوكيد بـ أنَّ " مرة ثانية في قوله : " أنَّهم هم الفائزون " وهي جملة مؤكَّدة باسميتها، ووجه التوكيد . كما لا يخفي . يتجلى في الثبوت والدوام ، ثم التوكيد بكون الجملة ذاتها تفيد القصر عن طريق تعريف الطرفين (المسند والمسند إليه "أنهم هم الفائزون ")، والقصر من أقوى التوكيدات، وقد زاد القصرَ توكيدا ضميرُ الفصل (هم)، وهو ـ فيما أراه ـ قصر إضافي، وأراه هنا قصر قلب؛ إذ إن هؤلاء الذين سخروا وضحكوا من المؤمنين كأنهم كانوا يدَّعون الفوز في الآخرة بالجنة كِبْرا وعنصرية من دون المؤمنين؛ من باب قوله تعالى " ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا " (الكهف ٣٦)، فقلب الله عليهم ظنهم هذا واختص المؤمنين دونهم بالفوز (قصر قلب).

ويتولد من هذا القصر أيضا أسلوبُ التعريض، ومعناه " إطلاق الكلام والإشارة به إلى معنى آخر يُفهم من السياق : كما تقول لمن يؤذِي: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " ([1])

ومن اليسير هنا تطبيق جمله "أنهم هم الفائزون " على مفهوم التعريض كما هو موضح في التعريف السابق؛ فالتعريض يصب هنا في مفهوم المخالفة أي إن هؤلاء الساخرين الضاحكين من المؤمنين استهزاءً وسخريةً هم الخاسرون في مقابل جزاء المؤمنين دونهم بالفوز .

****

[1]) السابق ص ٥٤٣ . والحديث المذكور ورد في كتب كثيرة من الصحاح ومنها صحيح البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر دار طوق النجاة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ج ١/ ص ١١

الموضع الثالث من مجيء الضحك منفردا :

قولـه تعالى " فتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (النمل ١٩)

السياق والمقام :

هذه الآية جاء ت في معرض قصة سليمان عليه السلام مع النملة، حينما سمع حديثها وفهم خطابها لعائلتها وقومها من النمل ، فأخذه العَجَب وتبسم ضاحكا من قولها، ثم ابتهل على أثر تلك النعمة (نعمة فهمه لغة النملة) إلى ربه بهذا الدعاء، " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، ونلاحظ أن الضحك هنا جاء حالا مؤكِّدة للتبسم ، يقول في التحرير والتنوير :

" تَبَسُّمُ سُلَيْمَانَ مِنْ قَوْلِهَا تَبَسُّمُ تَعَجُّبٍ. وَالتَّبَسُّمُ أَضْعَفُ حَالَاتِ الضَّحِكِ فَقَوْلُهُ: ضاحِكاً حَال موكدة فَتَبَسَّمَ وَضَحِكُ الْأَنْبِيَاءِ التَّبَسُّمُ، كَمَا وَرَدَ فِي صِفَةِ ضَحِكِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنَ التَّبَسُّمِ مِثْلَ بُدُوِّ النَّوَاجِذِ كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ صِفَاتِ ضَحِكِهِ ، وَأَمَّا الْقَهْقَهَةُ فَلَا تَكُونُ لِلْأَنْبِيَاءِ . " ([1])

[1]. التحرير والتنوير " ج ١٩/ص ٢٤٣

سر اقتران الضحك بالتبسم :

. وإذا كان الضحك هنا جاء مؤكِّدا للتبسم فلماذا لم يقل القرآن مثلا فتبسم تبسما ليكون مفعولا مطلقا مؤكدا من جنس الفعل ؟، والذي أراه هنا أن القرآن أراد أن يجمع بين لفظتين كلتاهما تدل على البهجة والسرور لتكون سعادة سليمان عليه السلام مركبة من معنيين متلازمين (الضحك والتبسم) ولو قال فتبسم تبسما ، أو فتبسم (فقط) لكان مظهر سعادته عليه السلام من لفظ واحد ومعنىً واحد ، لكن القرآن أراد أن يضاعِف من السرور والعَجَب بثنائية اللفظتين معا؛ فكل منهما يُهدي ملمسا خاصا في اكتمال صورة السرور والعَجَب لدى سليمان عليه السلام في هذا المشهد .

. كما أن في اجتماع الضحك مع التبسم توطئةٌ لتعظيم الدعاء الذي ابتهل به سليمان عليه السلام إلى ربه في قوله " رب أوزعني أن شكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين "

سر العطف بين جملة الضحك وما بعدها :

وأرى في عطف جملة الدعاء على " فتبسم ضاحكا من قولها " توسطا بين الكمالين ، حيث خبرية الجملتين لفظا ومعنى مع عدم وجود مانع من الوصل وتحقق الجامع بينهما ([1])

وتحقُّقُ الجامع بين جملة فتبسم ضاحكا من قولها وبين جملة الدعاء، ووصْلُ الأخيرة بالأولي بواو العطف . يؤكد ما قلته من حميمية العلاقة بين عِظَم الدعاء الذي دعا به سليمان عليه السلام ربه ، وبين الضحك والتبسم ؛ من حيث إن التبسم والضحك مهيّئان وموطِّئان لشئ مهم عظيم هو هذا الدعاء ، وكأن التبسم مع الضحك هما التمهيد ، والدعاء هو الموضوع، والموضوع دائما هو امتداد للتمهيد ، والتمهيد هو البذرة والموضوع هو الشجرة الباسقة لهذه البذرة ، وهذا هو سر العطف بين الجملتين .

سر صيغة اسم الفاعل :

نلاحظ أن الضحك هنا جاء باسم الفاعل " ضاحكا " ولم يأت فعلا كما جاء التبسم فعلا ؛ والذي أراه في هذا أنه ليس المراد الدلالة على دوام وثبات الضحك (والذي هو من دلالة التعبير بالاسم) ، فليس لهذا من معنى هنا، لأن الضحك هنا حدث مرة واحدة فليس للدوام والثبوت مدخلا في هذا السياق ، وإنما المراد من صيغة اسم الفاعل قوة الضحك في نفس سليمان عليه السلام وتغلغله في نفسه إعجابا واندهاشا من حديث النملة

[1] . ينظر المفصل في علوم البلاغة عيسى العاكوب ص ٣٠٦ وتأصيل المسألة في شروح التلخيص ج٣ ص ٦٩ ط دار الإرشاد الإسلامي بيروت بدون تاريخ .

، فإن الحدث كان جد غريب، ولم يسبق أن حدث في عالم الحشرات والحيوانات من قبل ، فكان انعكاس هذا الحدث متمثِلا في اختيار صيغة اسم الفاعل لضحك سليمان عليه السلام كرد فعل مفاجئ من حديث النملة ، ولا شك أن التعبير بالفعل في هذا المقام (سواء كان ماضيا أو مضارعا) لن يكون له قوة التعبير باسم الفاعل ، تلك الصيغة التي تحمل في بنيتها اللغوية من القوة مالا يحمله الفعل ؛ ولذلك نلاحظ في التبسم أن جاء بصيغة الفعل (فتبسم) لأن التبسم أضعف من الضحك، من حيث مدى قوته في الإخبار عما في النفس من اندهاش وعَجَب ؛ فإن الضحك هو الذي يضطلع بذلك أكثر من التبسم ، ومن هنا كان اختيار القرآن لصيغة اسم الفاعل في الضحك إشارة إلى قوة الحدث من ناحية ومدى غرابته وقوة اندهاش سليمان عليه السلام من ناحية أخرى .

تقديم التبسم على الضحك :

وفي تقديم التبسم على الضحك تصوير للواقع المشهود في حياة الخلائق ، فإن الإنسان إذا أ راد أن يضحك؛ فلابد أن يسبق التبسمُ الدعاءَ ولو لبرهة خاطفة من الزمن،على طريقة " أول الغيث قطرة " ومن هنا نرى في تقديم التبسم على الضحك تسجيلا قرآنيا معجزا لهذه اللقطة من العادات الإنسانية بعامة ، وفى حدث الضحك من سليمان عليه السلام بخاصة .

****

الموضع الرابع من مجيء الضحك منفردا :

قوله تعالى :" فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ " (الزخرف ٤٧)

السياق والمقام ،وسر التعبير بالضحك دون السخرية :

جاء الضحك هنا في سياق موقف فرعون وملئه من الآيات التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وأنهم ضحكوا استهزاء وسخرية مما جاءهم به موسى عليه السلام من الآيات والمعجزات، قال صاحب التحرير والتنوير " وَالضَّحِكُ: كِنَايَةٌ عَنِ الِاسْتِخْفَافِ بِالْآيَاتِ وَالتَّكْذِيبِ([1])

- وهنا يستوقفنا تساؤل : إذا كان الضحك هنا بمعنى الاستهزاء والسخرية والاستخفاف والتكذيب فلماذا آثر القرآن التعبير بالضحك هنا دون هذه المعاني الأخرى ؟ والذي أراه أن القرآن هنا سلك سبيل الإيجاز

[1] التحرير والتنوير ج٢٥ص ٢٢٥

بالقِصَر؛ فقد عبر بالضحك لأنه يفيد هذه المعاني كلها ، فالضحك سخرية وزيادة واستهزاء وزيادة وتكذيب وزيادة ، وهذا مسلك بلاغي من بلاغيات القرآن التي كثيرا ما يجنح فيها ناحية الإيجاز مادام الإيجاز هو الأنسب للمقام . وقد تطرقنا إلى هذه الجزئية في تحليلنا للموضع الأول (فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ٧١ . هود)

وإذا تقرر أن الضحك هنا يفيد هذه المعاني التي ذكرناها مجتمعة فإن العذاب الذي استحقه فرعون وملؤه في الآية التي بعدها في قوله تعالى " وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون " الزخرف ٤٨) يكون متساوقا مع الضحك الذي كان سببا في هذا العذاب لأنه (أي الضحك) صار جريمة أخلاقية لكونه يجمع في طياته هذه المعاني : من السخرية والاستخفاف والاستهزاء ، أما الضحك في ذاته . مجردا عن هذه المعاني . فلا يستحق أن يترتب عليه العذاب والتنكيل بهم .

سر التعبير بالمضارع في هذا السياق :

. والتعبير بالمضارع " يضحكون " يفيد أمرين : الأول : تجدد حدوث الضحك منهم ؛ فإنهم كانوا كلما جاءتهم أية كان يتكرر منهم هذا الضحك المستهزِئ بالآيات الساخر منها المستخِفِ بها وبمن جاءهم بها وهو موسى عليه السلام . والأمر الثاني في التعبير بالمضارع أراه هنا استحضارا لمشهد الضحك الساخر المستهزِئ من الآيات، وكأننا نراه بأعيننا ونسمعه بآذاننا في اللحظة الحاضرة وهو الذي بيننا وبينه قرون وعصور، فقد كان لائقا في هذا التركيب أن يقال مثلا . في غير القرآن . : " فلما جاءهم بآياتنا ضحكوا منها، هكذا بالماضي ، ليكون

موافقا للفعل (جاءهم) ، لكن القرآن آثر استحضار المشهد بالمضارع لتكون هذه الجريمة حاضرة مشاهَدة لكل جيل يقرأ القرآن إلى أن تقوم الساعة، تشنيعا على ما اقترفه فرعون وقومه في حق الآيات التي جاءتهم من عند الله على يد موسى عليه السلام ، ولتعلم الأجيال ـ بهذا الاستحضار لتكرار هذا الحدث في كل لحظة يُقرأُ فيها القرآن . كيف استحق هؤلاء ما حل بهم من انتقام الله بسبب ما اقترفوه من الضحك سخرية واستهزاء بشريعة موسى عليه السلام .

سر التعبير بـ " إذا " في هذا السياق :

ـ والتعبير بـ " إذا "في قوله " إذا هم منها يضحكون " له دلالة بالغة؛ فهو يُشعر بالمفاجأة التي جاءت على غير ما كان ينبغي أن يكون منهم تجاه هذه الآيات؛ فالطبيعي أن تسوقهم هذه الآيات إلى الإيمان بما جاءهم به موسى من شريعة كانت هذه الآيات دالة على صدقها، وأنها جاءت لخيرهم وإسعادهم في الدنيا والآخرة، ولكنهم بدلا من استجابتهم وخضوعهم لهذه الشريعة الإلاهية وتصديقهم بهذه الآيات ضحكوا منها استهزاءً وسخرية وازدراءً، وهذه الآيات هي معجزات موسى عليه السلام " كَيَدِهِ وَعَصَاهُ، وَمَا أَرْسَلَ مَعَهُ مِنَ الطُّوفَانِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالدَّمِ، وَمِنْ نَقْصِ الزُّرُوعِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالِانْقِيَادِ لَهَا، وَكَذَّبُوهَا وَسَخِرُوا مِنْهَا، وَضَحِكُوا مِمَّنْ جَاءَهُمْ بِهَا "([١])

[١]ـ تفسير ابن كثير المسمى بتفسير القرآن العظيم ا: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة .
==

فـالتعبير بـ " إذا " الفجائيـة يجعـل لضـحكهم وسـخريتهم واستهزائهم دلالة صادمة ومفاجئة لموسى عليه السلام ، فهو ضحك من نوع كريه مَقيت .

بين التقديم والتأخير في هذا السياق :

. وتقديم الجار والمجرور في قوله " إذا هم منها يضحكون " وأن لم يقل " إذا هم يضحكون منها " فيه العناية البالغة بهذه الآيات العظام عناية فائقة هي بها جديرة أن تكون في الصدارة والمقدمة تنبيها على أهميتها وعظمها ؛ وهذا حق؛ فالآيات هذه كانت معجزات، وأدلة ساطعات على صدق موسى عليه السلام فحق لها هذه العناية في التقديم، وكأن هذا التقديم يُشْعِرُنا أنه ليست هذه الآيات خاصة مما يُضحَكُ منها ويُستهزَأُ بها ؛ بل الأجدر لها أن تكون سببا لهدايتهم وسوقهم إلى الإيمان لا أن يتخلقوا بخُلُق الجحود والكفران والضحك والسخرية منها .

. وبجانب هذه المعاني نجد تقديم الجار والمجرور قد حقق جانبا آخر من جوانب النظم في الآيات؛ وهو الجانب الصوتي المتمثل في رعاية فاصلة الآيات في السورة، ليجتمع بذلك الإعجاز الصوتي مع الإعجاز الدلالي دفعة واحدة ، وهذا التوافق لم يتحقق بهذا الإبداع المعجز الغالب إلا في كتاب الله عز وجل .

*"**********

==

دار طيبة للنشر والتوزيع لطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م عدد الأجزاء: ٨ ج ٧ ص ٢٣٠

الموضع الخامس من مجيء الضحك منفردا :

قوله تعالى، " وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة " عبس ٣٨، ٣٩)

السياق والمقام :

الضحك في هذه الآية جاء في سياق تنعيم أهل الإيمان في الآخرة، وإسعادهم في رضوان الله يوم اللقاء الأعظم، والوجوه يومئذ نوعان : مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة .

فأهل الإيمان والصلاح هم هذا النوع الأول؛ وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة لما يرونه يومئذ من عظيم الجزاء وجزيل المثوبة ، والضحك هنا جاء مسندا إلى " وجوه " وكذا أسند الاستبشار إلى الوجوه، وهو من قبيل المجاز العقلي الذي علاقته المحلية، حيث إن الوجوه هي محل الضحك والاستبشار، أما الضاحك الحقيقي فهو الشخص نفسه ، يقول الطاهر بن عاشور :

" وَإِسْنَادُ الضَّحِكِ وَالِاسْتِبْشَارِ إِلَى الْوُجُوهِ مَجَازٌ عقْلِيٌّ لِأَنَّ الْوُجُوهَ مَحَلُّ ظُهُورِ الضَّحِكِ وَالِاسْتِبْشَارِ، فَهُوَ مِنْ إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى مَكَانِهِ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْوُجُوهَ كِنَايَةً عَنِ الذَّوَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ [الرَّحْمَن:٢٧]. ([1])

الإيجاز في التعبير بالضحك في هذا المقام :

[1] التحرير والتنوير ٣٠/ ١٣٨

. ومن بلاغة الضحك هنا في ضوء ما سبق: الإيجاز؛ فقد عبر بالضحك عن عدة أمور هي السعادة والفرح والسرور والحبور؛ حيث إن هذه المعاني من لوازم الضحك ومن مستتبَعاته ، أو أن الضحك نفسه عرَض وتابع لهذه المعاني المكنونة في النفس، وكأن القرآن عبَّر من خلال الوجه الضاحك عن كل أعضاء الجسد، وعن كل خوالج النفس وهي فَرِحَةٌ في الجنة؛ إذ إن كل ما في ضمير الإنسان وقلبه وخلجات نفسه يظهر على صفحات وجهه .

اقتران الضحك بالمعاني المتناسبة و مراعاة النظير :

. واقتران الضحك بالإسفار والاستبشار يجعل كلا منها يُعلي من شأن صاحبيه ، في مؤازرته لهما ومؤازرتهما له في هذا السياق؛ فالضحك من علامات الاستبشار، والاستبشار من بواعث الضحك، والإسفار مظهر من مظاهر الضحك والسعادة والفرح ، إذ معناه :" النُّورُ وَالضِّيَاءُ يُقَالُ: أَسْفَرَ الصُّبْحُ، إِذَا ظَهَرَ ضَوْءُ الشَّمْسِ فِي أُفُقِ الْفَجْرِ، أَيْ وُجُوهٌ مُتَهَلِّلَةٌ فَرَحًا، وَ (مُسْتَبْشِرَةٌ) مَعْنَاهُ فَرِحَةٌ، وَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلَ: اسْتَجَابَ، وَيُقَالُ: بَشَرَ، أَيْ فَرِحَ وَسُرَّ، قَالَ تَعَالَى: قالَ يَا بُشْرى هَذَا غُلامٌ [يُوسُف: ١٩] أَيْ يَا فَرْحَتِي. وَ (ضاحِكَةٌ) أَيْ كِنَايَةٌ عَنِ السُّرُورِ. ([1])

واجتماع هذه المعاني المتناسبة هنا يدخل بنا في باب مراعاة النظير، وهو لون بديعي يُفصِح عن الترابط بين المعاني التي بينها من الرحم ما يجعلها من ذوى القربى في عالم المعاني ، وقد سبق تعريفه، ولا مانع من التذكير به مرة أخرى؛ إذ هو " الجمع في الكلام بين أمر وما

[1] السابق

يناسبه لا بالتضاد .. ويُعْرَفُ بمصطلحات أخرى منها: التناسب والائتلاف والمؤاخاة والتوافق والتلفيق " ([1]).

وما نحن بصدده في الجمع بين الضحك والاستبشار والإسفار هو من صميم هذا اللون البديعي ، وكذلك يتحقق هذا اللون فيما يقابل هذه الصورة في قوله :" ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة " فبين الغبرة والقترة أيضا مراعاة نظير؛ فهما من واد واحد؛ حيث هما من علامات الشقاء والخسران يوم القيامة ، وتزداد نصاعة الضحك والاستبشار والإسفار بمقابلتها بعلامات الشقاء بعدها وهي الغبرة والقترة والكفرة الفجرة ، فالمقابلة بين المعاني المتضادة تبرز كل واحد منها في معناه بوضوح، وتُجلِّيه جلاءً ، وهكذا هي فلسفة المقابلة كلون من ألوان البديع ، وهي نفس الفلسفة التي في الطباق " ولا تختلف المقابلة عن الطباق إلا " في الكم ، ففي المقابلة يكون التقابل بين معنيين على الأقل وما يقابلهما في كل طرف طرفي المقابلة ، أما في الطباق فيكون بين معنى واحد ومقابله في كلا طرفي الطباق "([2])

سر التعبير باسم الفاعل :

ونلاحظ أن الضحك هنا جاء بصيغة اسم الفاعل " ضاحكة " ، ودلالة هذا واضحة في استجابة النظم لطبيعة المقام؛ وهو تنعيم أهل الجنة بالعطاء الممتد الثابت الذي لا يتغير لحظة واحدة، بل" لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

[1] . علم البديع للدكتور محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة الطبعة الأولى ٢٠١٩ تعليق على الحواشي دكتور محمود توفيق سعد ص ٩٨.

[2]. علوم البلاغة عبسى العاكوب ص ٥٦٣

فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (سورة ق . ٣٥) فلما كان نعيم أهل الجنة بكل مظاهره ثابتا دائما ممتدا إلى مالا نهاية ،لا يتحول ، ولا يتغير . فقد جاء ضحكُ وجوه أهل الجنة منسجما مع هذا الثبوت والدوام فجاء باسم الفاعل الدال على هذه الديمومة الأبدية الخالدة، وكأننا نرى وجوه أهل الجنة من الآن دائمة الضحك ؛ لا ينفك عنها الضحك ولا يغيب عنها لحظة واحدة ، كما هي دائمة الإسفار (مسفرة) والاستبشار (مستبشرة)وكل منهما جاء أيضا باسم الفاعل الدال على الثبوت ومطلق الدوام ؛ فلا ينفك عن وجوه أهل الجنة واحد من هذه المعاني الثلاثة، ولا يغيب عنها لحظة واحدة ، وكأن الضحك بهذه الصيغة جاء كحبة من حبات العقد المنسجمة مع بعضها البعض في الشكل واللون والحجم لتُشَكِّل عقدا متلألئا وهاجا بحباته المتشابهة المتماثلة المتآخية .

وألمح في التعبير بصيغة اسم الفاعل هنا في هذه المعاني الثلاثة (مسفرة . ضاحكة . مستبشرة) وبهذه الدلالة على مطلق الدوام والثبوت . تعريضا خفيا بضحك الوجوه في الدنيا المؤقت المنتهي ، وإسفار الوجوه في الدنيا المؤقت المنتهي ، واستبشار الوجوه في الدنيا المؤقت المنتهي؛ لأن هذه المعاني في الدنيا قائمة على ما هو من طبيعة الدنيا من الأغيار والتبدل والتحول ، فيأتي ضحك أهل الجنة في الآخرة بهذه الصورة المشخِّصة للدوام والثبوت في اسم الفاعل مقابَلةً خفيةً بضحك الحياة الدنيا المتقطع المتبدل ، وتعريضا خفيا بتقلباتها وتحولاتها بالخلائق من ضحك إلى بكاء، ومن فرح إلى حزن، ومن سرور إلى هموم ، ومن يسر إلى عسر، ومن فرج إلى ضيق، ومن صحة إلى مرض، ومن غنى إلى فقر .. والعكس بالعكس في كل هذه المعاني . .

بين التقديم والتأخير في هذا السياق :

ويلاحظ هنا أن القرآن قدَّم الوجوه المسفرة والضاحكة المستبشرة على الوجوه التي عليها غبرة وترهقها قترة ، على عكس ما جاء في سورة النازعات، حيث قدَّم هناك جزاء من طغى وآثر الحياة الدنيا بأن الجحيم هي المأوى، بينما أخَّر جزاء من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى بأن الجنة هي المأوى، وقد أجاب العلماء عن ذلك؛ يقول الطاهر بن عاشور:

" وَقُدِّمَ هُنَا ذِكْرُ وُجُوهِ أَهْلِ النَّعِيمِ عَلَى وُجُوهِ أَهْلِ الْجَحِيمِ خِلَافَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ [٣٧] فَأَمَّا مَنْ طَغى ثُمَّ قَوْلِهِ: وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ [النازعات: ٤٠] إِلَى آخِرِهِ لِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أُقِيمَتْ عَلَى عِمَادِ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ رَجُلٍ مِنْ أَفَاضِلِ الْمُؤْمِنِينَ وَالتَّحْقِيرِ لِشَأْنِ عَظِيمٍ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ فَكَانَ حَظُّ الْفَرِيقَيْنِ مَقْصُودًا مَسُوقًا إِلَيْهِ الْكَلَامُ وَكَانَ حَظُّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْمُلْتَفَتَ إِلَيْهِ ابْتِدَاءً، وَذَلِكَ من قَوْلِهِ: وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى [عبس: ٣] إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ قَوْلِهِ: أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى [عبس:٥، ٦] . وَأَمَّا سُورَةُ النَّازِعَاتِ فَقَدْ بُنِيَتْ عَلَى تَهْدِيدِ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ [النازعات: ٦- ٨] فَكَانَ السِّيَاقُ لِلتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَتَهْوِيلِ مَا يَلْقَوْنَهُ يَوْمَ الْحَشْرِ، وَأَمَّا ذِكْرُ حَظِّ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ دَعَا إِلَى ذِكْرِهِ الِاسْتِطْرَادُ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ مِنْ تَعْقِيبِ التَّرْهِيبِ بِالتَّرْغِيبِ." اهـ ([1])

****

[1] . التحرير والتنوير ج ٢٥/ ص ٢٢٥

الموضع السادس والسابع من مجيء الضحك منفردا

قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ.وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ. وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (المطففين ٢٩ . ٣٦)

السياق والمقام :

جاء الضحك هنا في موضعين من هذا السياق؛ أما الموضع الأول فهو في مقام سخرية الذين أجرموا من المؤمنين وأنهم يتغامزون على المؤمنين كلما مروا بهم، وإذا رجعوا إلى أهلهم وبيوتهم يتهكمون ويتفكهون سخرية واستهزاء بالمؤمنين، ويجعلون أكل لحوم المؤمنين بالغيبة والنميمة مادة لتفكههم وسخريتهم ، ولا يقفون عند هذا الحد وإنما يرمون المؤمنين بالضلال مؤكدين كلامهم بإنَّ واللام واسمية الجملة واسم الإشارة القريب الذي يشير إلى وثوقهم من كلامهم حيث يعرفونهم عن قرب ومخالطة " إنَّ هؤلاء لضالون " ، أما الموضع الثاني فجاء ردا من المؤمنين على سخرية المجرمين منهم، ففي يوم القيامة تأتي ساعة الجزاء من جنس العمل؛ " فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون " ولأن الضحك هنا جاء بحق، وأنه جاء جزاءً على ما فعله المجرمون بالمؤمنين في الدنيا فقد قال القرآن " هل ثُوِّب الكفارُ ما كانوا يفعلون " بمعنى أن جزاءهم كان من جنس عملهم أنفسهم وأنهم هم من جروا على أنفسهم هذا الوبال .

ونقف هنا مع بلاغة الضحك في الموضعين :

تقديم ضحك الذين أجرموا على ضحك الذين آمنوا :

ـ نلاحظ أن ضحك المجرمين من المؤمنين كان هو الجريمة الأساسية والتي تسببت في الضحك الثاني، ومن هنا قُدِّمَ ضحكُ المجرمين من الذين آمنوا ، من باب تقديم السبب على المسبب ،بل إن ضحك المجرمين لأنه الجريمة الأهم فقد قُدِّم علي بقية أفعالهم التي صدرت منهم تجاه الذين آمنوا : من التغامز، والتفكه في مجالسهم مع أهليهم ضد المؤمنين، ثم وصفهم المؤمنين بالضلال .

صيغة التعبير بالمضارع في الضحكين :

. ثم نلاحظ أن الضحك الأول جاء بصيغة المضارع للدلالة على تكراره وتجدده، سخرية من المؤمنين واستهزاءً بهم كلما كانت تواتيهم الفرصة لذلك في الدنيا .

. وفي جانب ضحك المؤمنين من الذين أجرموا جاء الضحك أيضا بصيغة المضارع ليفيد التجدد والتكرر ليكون الجزاء من جنس العمل . حتى النظم نفسه بهذه الصيغة جاء مصورا لهذه الحالة . لتزداد حسرة المجرمين يوم القيامة ، فكل لحظة ضحكوا فيها وسخروا فيها من المؤمنين واستهزأوا بهم يقابلها في الآخرة ضحِكٌ واستهزاءٌ من جانب المؤمنين، لكنه جاء ضحكا بحق، وجاء شفاءً لصدور المؤمنين .

التقابل بين ظرف زماني الضحك في الموضعين:

. والإشارة إلى ظرف الزمان لضحك المجرمين(كانوا) إنما هو إشارة إلى الدنيا ، وتقييده بهذا الظرف ليقابله بزمن ضحك المؤمنين منهم،" (فاليوم) الذين آمنوا من الكفار يضحكون " والتقابل بين زمن الضحكين والنص علي " اليوم " في جانب المؤمنين فيه إشارة إلى أن العبرة بمن يضحك أخيرا لأن زمن ضحك الذين أجرموا جاء في إطار الماضي المنتهي (كانوا) فقد انتهى وولى ولن يعود، أما(اليوم) الحاضر(وهو يوم القيامة) فقد أصبح ملكا للمؤمنين يضحكون فيه من خصومهم كيفما يشاءون، لكنه ضحك بحق وسخرية بحق واستهزاء بحق ، وليس بالباطل كما كان شأن ضحك الذين أجرموا في الدنيا ، وبهذه المناسبة لا نغفل دور الفاء في (فاليوم) لأنها جاءت لتفصح عما كان مختبئا ومنتظرا لهؤلاء الكفارَ من الجزاء الحق في هذا اليوم وتكشف عنه اللثام ، وكأني بهذه الفاء هنا تمثل الستار الذي يُزاح فنرى ما وراء الستار من أمور كانت عنا غيبا فصارت مشاهَدةً مرئية.

. كما أن في النص على زمن ضحك المؤمنين من الذين أجرموا (فاليوم) سموا وتعظيما لهذا ليوم بالنسبة للمؤمنين ، فهو اليوم الذي أخذوا فيه بحقهم، وشُفيت فيه صدورهم ، وفي الوقت نفسه: إنه اليوم الذي يُجازَى فيه المجرمون على ضحكهم من المؤمنين في دار الدنيا فيكون عليهم عسيرا أسْوَدَ نحِسًا ، فاليوم المذكور واحد ولكنه يختلف وجهه وسمته بالنسبة لكل فريق ؛ فهو في جانب المؤمنين يوم أغَرُّ باسمٌ وضَّاءُ ، وبالنسبة للذين أجرموا يوم كالح الوجه مُكْفَهِر حزين؛ كما نُجِّسَت

أيامُ عادٍ قوم هود بما حل عليهم فيها من العذاب في قوله تعالى " فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيامٍ نحسات " (فصلت :١٦) .

ملابسات كلا الضحكين في هذا السياق :

. وننظر في ملابسات الضحك في الموضعين فنجد ضحك المجرمين كان في جلوسهم على الطرقات، يتسكعون وينتظرون مرور المؤمنين بهم ليضحكوا منهم، ويتغامزوا بهم، ثم يكون اجتماعهم مع أهليهم في البيوت على هذه المائدة الخبيثة وهي نهشهم في لحوم الذين آمنوا، مائدة مُكَوِّنُها الرئيس: التفكه والتندر والسخرية من المؤمنين ووصفهم بالضلال كلما رأوهم ، ومن هذه الملابسات وصفهم بالإجرام قبل الضحك إشارة إلى أن كل إناء ينضح بما فيه، فالبيئة المجرمة لا يصدر منها إلا ماكان لفقا لها وشبيها بها .

أما ضَحِكُ المؤمنين من المجرمين في يوم القصاص ويوم الحق والعدل فقد صاحبه حالتُهم من العز والتكريم وهم على الأرائك ينظرون ، والأرائك هي المجالس الراقية والأسرة الفاخرة في الجنة، وهي مجالس عالية المكان والمكانة ([1]) ، فشتان ما بين مجالس ومجالس .

. ومما صاحب ضحكَ المؤمنين في الآخرة نظرُ المؤمنين بعضهم إلى بعض " على الأرائك ينظرون" هكذا بالفعل المضارع الذي يُحضِرُ لنا المشهدَ من عالم الغيب في الآخرة ، وكأننا نراه ونشاهده في كل لحظة تُقْرأُ فيها هذه الآية .

---

[1] . ينظرالتفسير الواضح محمد محمود حجازي الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت الطبعة: العاشرة – ١٤١٣ هـ ج ٣ ص ٨٣٩

وأستشعرُ أن نظرهم إلى بعض هنا . متقابلين على الأرائك الفاخرة . فيه نوع من الأريحية المتبادلة بين المؤمنين بعضهم لبعض، وأنهم ـ وهم المؤمنون أصحاب العقل والبصيرة والحكمة ـ في رضا عما يصدر منهم تجاه الذين أجرموا، مرتاحون لضحكهم منهم وأن الله قد شفا صدورهم في يوم الجزاء والحساب جزاءً وفاقا .

. وهذه الملابسات لكلٍ من ضحك المجرمين من المؤمنين، وضحك المؤمنين من المجرمين (الكفار) تدخل بنا في دائرة مراعاة النظير، إذ إن كل ضحك من الضحِكَين جاء في مناخ يناسبه وبيئة تنبته ، وأحيط بأحوال وأدوات تتآخى معه ، وقد سبق التعريف بهذا الفن البديعي عند كلامنا في الموضع السادس وغيره من هذا المبحث .

سر التعبير بـ " الكفار" عن الذين أجرموا :

ـ ونلاحظ أن التعبير القرآني وصف الذين أجرموا حين ضَحِكَ المؤمنون منهم (بالكفار) : " فاليوم الذين آمنو من الكفار يضحكون " تسجيلا عليهم بالكفر وأنهم جمعوا بين الإجرام والكفر، أو لأن إجرامهم بضحكهم وسخريتهم من المؤمنين قد أوصلهم إلى الكفر، أو أن ضحكهم وسخريتهم من المؤمنين كان إفرازا طبيعيا لبيئتهم الكافرة؛ وكأنهم بتسجيل القرآن عليهم بالكفر في يوم الجزاء أصبحوا لا حرمة لهم ولا كرامة لهم؛ فيستحقون إذن كل ما يتعرضون له في هذا اليوم ، من الضحك والاستهزاء والسخرية من جانب الذين آمنوا ، ونلاحظ في هذا الصدد أن جزاء الكفار المجرمين هنا كان من جنس عملهم (الضحك منهم سخريةً وإهانةً وتحقيرا) مع أنهم ينتظرهم العذاب المادي والجسماني في النار ، لكن القرآن هنا اكتفى بالعذاب النفسي والمعنوي من خلال ضحك المؤمنين منهم؛ لأن العذاب المعنوي أشد إيلاما للنفس من العذاب المادي.

*****

أكتفي بهذا القدر من تحليل لمواضع المحور الأول: وهو تفرد الضحك في سياقاته ومقاماته ، مؤكِّدا على أنه لا زالت هناك كنوز بلا غية وراء هذه المواضع السبعة ولكن لضيق الوقت اكتفيت بما تيسر لي هنا.. والله من وراء القصد .

المحور الثاني : مجيء البكاء منفردا عن الضحك

وقد جاء ذلك في أربعة مواضع في القرآن :

الموضع الأول: قوله تعالى "وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (يوسف١٦)

السياق والمناسبة :

جاءت هذه الآية في مشهد من سورة يوسف عليه السلام، يبرز لحظة من لحظات التمثيل التى تقمصها إخوة يوسف على أبيهم يعقوب عليه السلام؛ وهي محاولة تغطية فعلتهم النكراء بهذا البكاء المصطنَع ، بعد أن قاموا بإلقاء يوسف عليه السلام في الجب، ثم ادّعَوا بأن الذئب قد أكله، إلى آخر ما جاء في هذا المشهد .

والذي يهمنا هنا هو الحديث عن البكاء : فقد جاءت جملة " يبكون هنا " جملة حالية، وهي تصف مجيئهم لأبيهم في حالة تلبسهم بالبكاء المصطنع وجاءت كلمة " عِشاءً " هنا ظرفا لزمان بكائهم.

سر الجملة الحالية لفعل البكاء والتعبير بالمضارع :

- نلاحظ أن فعل البكاء هنا هو الحدث الأهم في المشهد وإن كان جاء في جملة حالية ، فليس كونه حالا يعني أنه معنى زائد أو فضلة، كما يقول علماء النحو عند تعريفهم الحال، إذ المعنى هنا قائم على هذا الحدث وعليه مداره؛ فليس المقصود أنهم جاءوا أباهم عشاءً فقط؛ . فما في هذا إضافة في الأحداث . وإنما هناك شيء مهم مكمل للخبر وجزء رئيس منه لا ينفك عنه، وهو كونهم جاءوا بهذه الهيئة من البكاء، وكأن المجيء عشاءً وحدث البكاء خبر واحد وليسا بخبرين ؛ إذ إن جملة " يبكون " -

وهي جملة حالية . لم تُعطف بالواو على الجملة قبلها بالواو ؛ وقد تحدث الإمام عبد القاهر عن هذا الأمر مُفَرّقا بين مجيء الجملة الحالية في الخبر عاريةً من الواو وبين مجيئها مرة أخرى معطوفة بالواو على ما قبلها فيقول ""وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن كل جملة وقعت حالًا، ثم امتنعت من الواو؛ فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها، فضممتَه إلى الفعل الأول في إثباتٍ واحد، وكل جملة جاءت حالًا ثم اقتضت الواو، فذاك لأنك مستأنِفٌ بها خبرًا وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات". تفسير هذا: أنك إذا قلت: جاءني زيدٌ يسرع، كان بمنزلة قولك: جاءني زيدٌ مسرعًا، في أنك تثبت مجيئًا فيه إسراعٌ، وتصل أحد المعنيين بالآخر، وتجعل الكلام خبرًا واحدًا، وتريد أن تقول: جاءني كذلك، وجاءني بهذه الهيئة ..وإذا قلت " جاءني وغلامه يسعى بين يديه " و" رأيت زيدا وسيفه على كتفه " كان المعنى على أنك بدأت فأثبتَّ المجيء والرؤية ، ثم استأنفت خبرا وابتدأت إثباتا ثانيا لسعي الغلام بين يديه ولكون السيف على كتفه ، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى ، فجئ بـ " الواو " كما جيء بها في قولك : " زيد منطلق وعمرو ذاهب " ، و" العلمُ حسنٌ والجهل قبيح .." اهـ ([1])

. ومن دلالة التعبير بالمضارع (يبكون) . فيما أرى . : استحضار الحدث وكأننا نرى إخوة يوسف عليه السلام قائمين أمامنا في هذا المشهد ونرى بكاءهم رأي العين من خلال التعبير بالمضارع هذا ، ولا معنى هنا لأن نجعل التعبير بالمضارع من باب التجدد والاستمرار؛ لأن المضارع هنا

١ . دلائل الإعجاز شرح الدكتور محمد إبراهيم شادي ط دار اليقين الطبعة الأولى ٢٠١٠ ص ٢٩٧ وما بعدها

يصف حدثا قد وقع مرة واحدة ولم يتكرر ولم يتجدد فيكفي أنه يفيد استحضار المشهد كما أسلفنا .

كمال الا تصال في هذا الموضع :

وأما عن علاقة جملة " وجاءوا أباهم عشاء يبكون " بما بعدها وهي قوله تعالى : " قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا .. إلى آخر الآية " فأرى أنها كالتوطئة لما جاءوا به من كذب واختلاق على أبيهم فيما صرحت به الآية التالية ، والآية التالية هذه جاءت مفسِّرةً وموضحة لما انطوت عليه آية البكاء من إبهام وإجمال ، فبينهما . على هذا . كمال اتصال ، لأن الجملة الثانية جاءت من الجملة الأولى بمنزلة عطف البيان، على حد قوله تعالى " فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد " (طه ١٢٠) ، وفي هذا الصنيع من النظم ما فيه من التشويق والتطلع والترقب إلى ما بعد جملة الإبهام والإجمال، وهذه صورة من صور تعانق النظم وتشابكه واتصال أوله بآخره وآخره بأوله .

سر التعبير بظرف الزمان " عشاءً" وسر التباكي في هذا الموضع :

. أما عن ظرف الزمان " عشاءً " فإنه يفيد أنهم قصدوا إلى مجيئهم في هذا الوقت لعل الليل يُخْفِي ملامح وجوههم الكاذبة وهم في غطيط ادعاءاتهم الكاذبة على أبيهم يعقوب عليه السلام .

وحدَثُ البكاء هنا هو في ذاته تباكٍ وليس بكاءً حقيقيا هنا، وهو تمويه لمحاولة إخفاء الجريمة عن أبيهم لعلهم ينجحون في إقناعه بأنهم صادقون فيما يدَّعون .

. وقد لجأوا للبكاء خاصة دون أي حيلة أخرى لأن البكاء أكثر ما يستميل المخاطب ويحمله على التصديق بما يدعي الباكون .

بعد أن كتبت هذا الكلام في سر التعبير بظرف الزمان " عشاء" وكون البكاء تباكيا وليس بكاء حقيقيا وسر مجيء البكاء (بوجه عام) رجعت إلى كتاب التفسير القرآني للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب فوجدته كتب حول هذه المعاني فيقول : إنهم جاءوا ملفَّفين فى ظلام اللّيل، خوفا من أن يفضحهم ضوء النهار، ويمزّق هذا القناع الزائف المموه بتلك الدموع الكاذبة، التي بلّلوا بها خدودهم. ، إن العين إذا التقت بالعين كشفت عن كثير من خفايا النفس، وقرأت ما لا يصرّح به اللسان، ولا تبوح به الكلمات.. ولهذا يجرؤ الإنسان على أن يقول فى الظلام، ما لم يكن يقوله فى النور، حين تلتقى العين بالعين!! إنه يخبط خبط عشواء، ويرمى بالكلام فى غير مبالاة! إن العين هى حاسّة الحياء، وموطن الاستحياء.. ولا ينكشف ذلك لها إلا وهى مبصرة.. ولهذا، فإن أصحاب الحياء يضعون أيديهم على أعينهم، حين يرون ما يستحيا منه، أو ينطقون بكلمة تخدش الحياء ، ثم كان البكاء فضيحة أخرى لهم.. إنّه تباك وليس بكاء.. إنه أصوات ليس فيها حرقة الكبد، وزفرة الصدر الكليم! والاذن قادرة على أن تميز التباكي من البكاء، وتفرق بينهما. اهـ ([١])

الموضع الثاني من مواضع البكاء منفردا :

.قوله تعالى: وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (الإسراء ١٠٩)

[١].التفسير القرآني للقرآن المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) : دار الفكر العربي – القاهرة ج ٦ ص ١٢٤٥.

السياق والمقام وأصالة فعل البكاء في السياق :

جاءت هذه الآية في الحديث عن موقف الذين أوتوا العلم من آيات القرآن إذا تليت عليهم ، فيكون حالهم ما تحدثت عنه الآيات في قوله تعالى" قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (الإسراء ١٠٧ . ١٠٩)

والذين أوتوا العلم من قبله هم من آمنوا بالقرآن قبل نزوله من أهل الكتاب السابقين قبل الإسلام ، ثم أدركوا الإسلام وسمعوه يتلى من فم النبي . صلى الله عليه وسلم . كما جاء في كتب التفسير، أمثال " زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، وعبد الله بن سلام " (٢)

ونتأمل البكاء هنا لنراه جاء جملة حالية بالفعل المضارع ، ومع كونه جملة حالية فهو خبر أصيل مضموما إلى الخرور للأذقان ؛ فليس كلا منهما خبرا منفصلا عن الآخر؛ بل هما خبر واحد في هذا السياق لأن البكاء هنا جاء جملة حالية بدون الواو على نحو ما أوضحنا في الموضع السابق(وجاءوا أباهم عشاء يبكون)

وكما بينا هناك ، أن البكاء كان محوريا وأصيلا في الجملة ، كذلك نلاحظ هنا هذا المعنى ، فليس المقصود هنا أنهم يخرون للأذقان فقط ؛

(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ ج ٢ص ٤١٧ .. وغيره من كتب التفسير.

فلا قيمة للخرور إلى الأذقان بدون البكاء من خشية الله عندما تتلى عليهم آيات القرآن ، وإنما المقصود أنهم يخرون للأذقان متلبسين بالبكاء، وهذا هو شرفهم الذي قصد القرآن تشريفهم به في هذا السياق ، وكما استشهدنا في الموضع السابق بكلام الشيخ عبد القاهر في دلالة مجيء الجملة الحالية بدون الواو فهو دليلنا هنا أيضا ، ويراجع كلامه في الموضع السابق .

مراعاة النظير في هذا السياق :

ونلاحظ أن البكاء هنا جاء مصحوبا بمعانٍ أخرى مشاكلة له ومتناسبة أيما تناسب ، فهذا هو الخشوع وهذا هو التسبيح وهذا هو دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى لتكتمل الصورة لموكب معاني الذكر والتعبد لله تعالى في أبهى صورها .

وكلها معانٍ تأخذ بأيدي بعضها لتأوي بنا في رياض مراعاة النظير؛ لأن الصورة هنا جمعت بين معانٍ متناسبة بعضها من بعض؛ وبينها من الألفة والحميمية ما لا يخفى، وقد سبق الحديث عن هذا الفن البديعي سابقا .

سر التعبير بالمضارع في هذا الموضع وسر تكرار الخرور إلى الأذقان :

- ويفيد التعبير بالمضارع تكرار البكاء وتجدده كلما تُلِي عليهم القرآن ، وهذا يوحي بتجاوب أنفسهم المؤمنة مع القرآن بصورة تلقائية متجددة كلما سمعوا القرآن تتلى عليهم آياته ، كما أن التعبير بالمضارع

يوحِي باستحضار المشهد، وكأننا نراه رأي العين ونشاهده يحدث في اللحظة الحاضرة .

وإذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإن التعبير بالمضارع يتسع هنا ليشمل تكرار وتجدد الحدث في كل عصر وفي كل زمان لأحوال المؤمنين وهم يخشعون ويخرون للأذقان سجدا وباكين كلما تتلى عليهم آيات الرحمن .

. والبكاء هنا تعبير عن خشيتهم من الله تعالى وتمكُّن الإيمان في قلوبهم، كما قال تعالى " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا .. " (الأنفال ٢: ٣)

. كما نلاحظ أن الخرور تكرر مرتين في هذا السياق، حيث تعلق أولا" بتعظيم الله وتنزيهه ، وتعلق ثانيا بالبكاء لتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم، ومزيد خشوعهم، ولهذا قال: {وَيَزِيدُهُمْ خشوعا} (١)، يقول صاحب الكشاف : " فإن قلت: لم كرّر يخرون للأذقان؟ قلت: لاختلاف الحالين؛ وهما : خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين.(٢)

---

(١) بتصرف : تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي : دار طوق النجاة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م ج ١٦ ص٢٥٤

(١) تفسير الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ ج٢ ص ٧٠٠

. وتعلق البكاء بالخرور إلى الأذقان يفيد انفعال القلب مع الجوارح في خشوعهم لله تعالى؛ حيث إن البكاء هو انعكاس لخشوع القلب وتأثره بما يتلى عليهم من القرآن ومواعظه وأحكامه وتشريعاته، والخرور للأذقان مظهر لخضوع الجوارح لهذا القرآن ، فتكتمل بهذا : الصورة الظاهرية مع الصورة الباطنية للذين أوتوا العلم في محراب التعبد لله عز وجل والإذعان لما جاء به القرآن .

****

الموضع الثالث من مجيء البكاء منفردا :

قوله تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (مريم : ٥٨)

السياق والمقام:

السجود والبكاء في هذا المقام جاءا تعبيرا عن خشية وخضوع المُشار إليهم . في قوله تعالى " أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين.. إلى آخر لآية " . لله عز وجل عند سماع آياته وتلاوتها عليهم " فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله ، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر ، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدا وبكيا " . [١]

[١]. في ظلال القرآن عند تفسيره لهذه الآية .

سر التعبير بهذه الصيغة المتفردة(بُكيا) في القرآن كله :

وقد جاءت صيغة البكاء هنا جمع باكٍ كشاهد وشهود فوزنها فُعُول، سماعا وليس قياسا ، فقياس جمعها بُكاة كقاض وقضاة على وزن "فُعَلَة"(١)"

و" بُكِيًّاً" أصلها بُكُوى اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء "(٢)

وقيل " إن " بُكيا " هنا جاء مصدرا "«: إمَّا مصدراً مؤكِّداً لفعل محذوفٍ، أي: وبكَوا بُكِيًّا، أي: بكاء، وإمَّا مصدراً واقعاً موقع الحال، أي باكينَ، أو ذوي بكاء، أو جَعلُوا نفس البكاءِ مبالغةً (٣)

---

١ . ينظر إعراب القرآن وبيانه إعراب القرآن وبيانه : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ) . دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥هـ عدد المجلدات : ١٠ ج ٦/ ص ١٢١ ، وينظر : البحر المحيط في التفسير البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ ج ٧/ ص ٢٧٧

٢ . تفسير الألوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)المحقق: علي عبد الباري عطية: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ ج٨/ ص ٤٢٦

٣ . اللباب في علوم الكتاب المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ) تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ==

ولكن هذا الرأي مرجوح ، بل غير مقبول عند مشاهير علماء اللغة ، قال الزجاج " ومن قال في «بُكِيًّا» : إنَّه مصدرٌ، فقد أخطأ؛ لأنَّ سُجَّداً جمع ساجدٍ، وبكياً معطوف عليه.([١])

وجاء في تفسير ابن عطية : " وقالت فرقة: هو مصدر بمعنى البكاء التقدير : وبكوا بُكِيًّا واحتج الطبري ومكي لهذا القول بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه روي أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال «هذا السجود فأين البُكّي» يعني البكاء، واحتجاجهم بهذا فاسد لأنه يحتمل أن يريد عمر رضي الله عنه «فأين الباكون» ، فلا حجة فيه لهذا"([٢])

ولضعف هذا الرأي (القول بالمصدرية) نرى أن كثيرا من المفسرين المهمومين في تفسيرهم باللغة وأسرارها قد تجاهلوا هذا الرأي تماما ، حتى كأنه غير موجود ، وعلى رأس هؤلاء وفي مقدمتهم الزمخشري في الكشاف والنسفي في تفسيره ، والبيضاوي ، والبغوي ، والإمام أبو السعود ، والطاهر بن عاشور ، وصاحب الجدول في إعراب القرآن ، وصاحب إعراب القرآن وبيانه، وغيرهم كثير .([٣])

وربما الذي شغل بعض المفسرين بالتنبيه على الرأي بالمصدر في هذه الصيغة هنا أن من مصادر (بَكَى) معجميا " بُكِيّ " جاء في لسان

==

والشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م عدد الأجزاء: ٢٠ ج ١٣/ ص ٨٥

[١] . السابق

[٢] تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٤/ ص ٢٢

[٣] . ينظر هولاء جميعا في تفاسيرهم لهذه الآية .

العرب : " وَقَدْ بَكَى يَبْكِي بُكَاءً وبُكيًّا" ([1]) لكن حمْلَ الصيغة هنا في هذا السياق خاصة على المصدر فيه حمل على غير الأولى، وذلك لروح السياق وما يقتضيه المقام من مدح الذين أنعم الله عليهم ؛ والسبب . فيما أرى . أن كونها جمع " باكٍ": يراعَى فيه رفعُ شأن الباكين أنفسهم وتشبع ذواتهم بالبكاء من خشية لله، وخضوعهم لجلاله عندما تُتْلَى عليهم آيات الرحمن ، وفي ذلك ما فيه من الاهتمام بذوات هذه الصفوة من كرام البشر ممن أنعم الله عليهم وتشريفهم أنفسهم .. أما حمل الصيغة هنا على المصدرية فهذا يُبْعِدُ هذه المعاني الراقية ، ويشغلنا بالمعنى المطلق للبكاء مجردا عن الباكين أنفسهم واستحضار ذواتهم الزكية الخاشعة الساجدة الباكية ، إضافة إلى هذا : لا نُغْفِل التناسب والتناسق بين عطف الجمع على الجمع ؛ فإن " سُجَّدا" جمع ساجد فالأنسب أن تكون " بُكِيًّا" جمع باٍك كما سبق بيانه

. واختيا ر هذه الصيغة " بُكِيّا " بالذات دون " باكين " مثلا يتناسب مع مراعاة فاصلة الآيات قبلها وبعدها وهذا من بديع نظم القرآن الذي ألفناه دائما في الجمع بين إعجاز اللفظ وإعجاز المعنى .

. وهناك اعتبار مهم في هذا الصدد؛ أن(بُكِيًّا) وزنها (فُعول) كما أوضحنا؛ وهو من الأوزان التي تفيض بالمبالغة في مبناها ، عما لو جاء التعبير مثلا : خروا سجدا وباكين .

[1] ـ لسان العرب لابن منظور : دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ عدد الأجزاء: ١٥ج ١٤ ص ٨٢

. وعطف البكاء هنا بصيغته هذه على السجود في صيغة من صيغ المبالغة أيضا (سُجَّدا) بدلا من ساجدين مثلا . يجعل المبالغة في البكاء تزداد توكيدا فوق توكيد.

. وبجانب المبالغة بهذه الصيغة : لا نُغْفِلُ جانب الاسمية (سجدا و بكيا) وما يقتضيه من الدوام والثبات، وهذا يزيد من عظمة لوحة الشرف في هذه الصيغة لهؤلاء البررة؛ فهم موصوفون بالسجود الدائم لمن أَنْعَم عليهم . سبحانه .، وموصوفون بالبكاء الدائم خوفا منه وشوقا إليه .

من أسرار عطف البكاء على السجود في هذا الموضع :

وجمَع بين الوصفين (سجدا وبكيا) بالواو إيذانا بأنهم ممدوحون بالوصفين كلٍ على حده ، وأنهم جمعوا بين الكمال في الوصفين. ([١])

إضافة إلى أن ختام الآية بهذه الصيغة من البكاء(بُكِيا) معطوفةَ على السجود بصيغته الاسمية (سجدا) التي تدل على الثبوت والدوام ، وبما فيهما من المبالغة التي أوضحناها ، ومن مدح ذوات الممدوحين بهاتين الصفتين وهم هذه الكوكبة المضيئة في تاريخ البشر- كل ذلك يعكس مدى خسارة وفداحة الفريق الآخر المقابل من هؤلاء الخلف الذين جاءوا من بعد هذه الصفوة البشرية ، فهؤلاء الخَلَف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، لوكان عندهم ذرة من عقل لجعلوا هذه الكوكبة من هداة البشر هم قدوتهم ، ودليلهم إلى الحق والصراط المستقيم، ولكنهم ضلوا وتنكبوا الطريق ، فكان منهم ما كان من إضاعة الصلاة واتباع الشهوات ،

[١] . ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج١٢/ص ٢٢٢

ومن هنا تتجلى قيمة المقابلة في النظم القرآن بين الفريقين على نحو ما أوضحنا .([1])

احتفاء النظم والتراكيب في الآية بالَّذين أنعم الله عليهم في سياق هذه الصيغة المتفردة :

وقد جاءت صيغة " وبكيا " هذه المتفردة في القرآن كله تجاوبا مع المقام في هذا السياق ، حيث إن السياق يتحدث عن صفوة البشر وهم الأنبياء ومَن اصطفاهم الله تعالى من البشر فاجتباهم وهداهم ، فنرى النظم في هذه الآية قد احتفى بهذه الكوكبة من البشر أيما احتفاء حتى انتهت الآية بصياغة بكائهم من خشية الله بهذه الصيغة المتفردة ؛ ومن مظاهر هذا الاحتفاء في نظم الآية :

ـ الإشارة إلى هذه الصفوة من البشر باسم الإشارة البعيد " أولئك " الذي يُشْعِر من خلال السياق والمقام بالتعظيم والتكريم لهؤلاء الكرام البررة .

ـ ذِكْرُ أولئك النبيين من ذرية آدم ومَنْ حُمِلوا مع نوح عليه السلام، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل، ومَنْ هداهم الله، واجتباهم، ونلاحظ أن الآية احتفت في نظمها بهذه الصفوة من خلال ذكرهم باسم الموصول " الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية أدم ... إلى آخره " للاهتمام بما جاء

---

[1]. أفدت هذه الجزئية من لفته تشير إلى ذلك من بعيد من تفسير الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية تأليف نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ) دار ركابي للنشر – الغورية، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م ج١ص ٥٠٢

في حيز الصلة بما يُعْلي من شأن هذه الكوكبة من البشر إعلاء فوق إعلاء ، وكفي بذكر" إنعام الله عليهم " تكريما ورفعة وتعظيما

. إسناد فعل الإنعام إلى لفظ الجلالة وإسناد الأفعال هدينا " واجتبينا إلى نون العظمة الإلاهية يزيد من احتفاء النظم بهذه الصفوة البشرية

****

الموضع الرابع من مواضع البكاء منفردا :

قوله تعالى " فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (الدخان ٢٩)

المقام والسياق :

جاءت هذه الآية في سياق هلاك فرعون وقومه الذين أطاعوه وكفروا معه بموسى عليه السلام ورسالته، وأنه لم تبك على هلاكهم سماءٌ ولا أرضٌ، فقد " نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على فرعون وقومه الهالكين معه في جوف البحر وظلماته ، فاقتضى أن للسماء والأرض بكاءً."([١])

[١] " بتصرف : تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٥/ ص ٧٣

الآية هنا قائمة على المجاز في إسناد الضحك والبكاء إلى السماء والأرض :

وبعد مراجعة آراء العلماء في إسناد البكاء إلى السماء والأرض هنا خلُصتُ إلى الرأي الذي يرى بأن المعنى هنا يدور في إطار المجاز في الآية ؛ إذ إن البكاء الحقيقي لا يصدر من السماء ولا الأرض، والمجاز هنا هو في إطار الاستعارة المكنية حيث شبه السماء والأرض بالإنسان ورمز للمشبه بشيء من لوازم المشبه به وهو البكاء ، أو هو من قبيل الا ستعارة التمثيلية التخييلية فقد " شبه حال موتهم لشدته وعظمته بحال من تبكِي عليه السماء والأجرام العظام، وأثبت له ذلك، والنفي تابع للإثبات في التجوز كما حُقِّق في موضعه" ([1])

فطريقة القرآن في إسناد البكاء للسماء والأرض هنا قائمة على التمثيل والتخييل ، وهي طريقة شائعة في كلام العرب عند موت العظماء وذوي الشأن ؛ جاء في تفسير الزمخشري" إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض، وبكته الريح، وأظلمت له الشمس. وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» ([2])

---

[1] . تفسير الألوسي (روح المعاني) عدد الأجزاء:١٦ (١٥ ومجلد فهارس) ج١٣/ ص١٢٢

[2] . ينظر تفسير الكشاف للزمخشري: دار الكتاب العربي – بيروت ج ٤/ ص ٢٧٦ والحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند ==

وقال جرير في رثاء عمر بن العزيز

الشمس طالعة ليست بكاسفة ☆☆☆ تبكى عليك نجومّ اللّيل والقمرا

يقول شيخنا الدكتور محمد أبو موسى في تعليقه على هذا البيت ـ في سياق تحليله لهذه الآية . : " وأصل هذا المعنى هو الإحساس بأن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر كل ذلك ينعطف نحو الكريم ويحبه ويرعاه؛ فإذا أصابه مكروه كانت كل هذه من بواكيه، وهذا إعلاء للقيمة الإنسانية المتمثلة في كرم الكريم النبيل الشهم ، وهذا جيد ، ويقولون في موت الخسيس الذي ليس له قدر : ما بكت عليه سماء ولا أرض ، وهذا هو الذي عليه الآية ، وفيه قدر كبير من السخرية، وأن طغيان فرعون وكبرياءه وأنه يملك مصر وأنه ربهم الأعلى كل هذا الكلام وهذا التهويش لم يرفع خساسته ولم يَشغَل به أرضا ولا سماءً، وإنما هلك كما يهلك الرعاع " (١).. فالبكاء في الآية " قائم على سبيل التمثيل والتخييل وهو جزء من اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن " (٢)

وقد سبق الإمامُ البيضاويُّ مع من سبق بتأصيل هذا الرأي وتبَنّيه؛ فيقول عن البكاء في هذه الآية : " مجاز عن عدم الاكتراث

==

الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م ج١٢/ ص ٢٩٥

١. آل حم الشورى والزخرف والدخان دراسة في أسرار البيان مكتبة وهبة الطبعة الأولى ٢٠١٠ ص ٦٢٦

٢. السابق .

بهلاكهم والاعتداد بوجودهم كقولهم: بكت عليهم السماء والأرض وكسفت لمهلكهم الشمس في نقيض ذلك " ([1])

وجاء في تفسير ابن عطية تأييدا لهذا التأصيل على نحو ما بينتُ : " قال القاضي أبو محمد: والمعنى الجيد في الآية أنها استعارة باهية فصيحة تتضمن تحقير أمرهم، وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ [إبراهيم: ٤٦] على قراءة من قرأ «لِتزولَ» بكسر اللام ونصب الفعل وجعل إِنْ نافية، ومثل هذا المعنى قول النبي عليه السلام: «لا ينتطح فيها عنزان» فإنه يتضمن التحقير، لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه " ([2])

أخلص مما سبق إلى التأكيد على مجازية البكاء في الآية من حيث إسناده إلى السماء والأرض(والنفي تابع للإثبات في الجاز أو الحقيقة) وأن عدم بكاء السماء والأرض جاء لتحقير شأن فرعون وقومه ، وأن مَهْلكَهم لم تقم له الدنيا ولم تقعد، كما كان فرعون يرسم لنفسه ولقومه المستخِف بهم صورة الذي هو محور الوجود والحياة من حوله ، بل ذهب غير مأسوف عليه مع أحقر المخلوقات شأنا، هذا هو ظلال التعبير بعدم بكاء السماء والأرض عليهم .

---

[1] . تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي : دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ ج ٥ص ١٠٢

[2] : تفسير ابن عطية ج ٥/ ص ٧٣

ويمكن أن يوجه المجاز في الآية إلى المجاز المرسل الذي علاقته المحلية بمعنى أن المقصود في الآية أنه لم يبك على هلاكهم أحد من سكان الأرض ولا من سكان السماء ؛ فأطلق المحل وأراد الحال فيه كما يقال : فازت الكلية بالمراكز الأولى على مستوى الجامعة والفائز هم الطلاب والكلية محل لهم، و تكون بلاغة المجاز المرسل في الآية على هذا الوجه : أن المكان مع سكانه يحتقران هذا الهالك (فرعون وقومه) وأن كل شيء في الوجود ـ سماءً وأرضا ـ ناقم عليهم ومستريح من شرهم عندما هلكوا، فهم لم يعمروا الأرض بعمل صالح حتى تأسَى أو تبكِي على هلاكهم بل استراحت منهم الأرض ، ولم يصعد لهم إلى السماء عمل صالح حتى تأسى على هلاكهم، وهذا هو سر ذكر السماء والأرض في هذا المقام .

وقد استلهمت هذا الرأي(المجاز المرسل) من قول الشيخ عبد الكريم الخطيب عند تفسيره لهذه الآية " أي لقد أهلكهم الله وأخذهم بعذابه، فلم يأس عليهم أحد، ولم تَبكهم عين، ولم يحزن من أجلهم قلب.. بل ذهبوا كما يذهب الوباء، يتنفس بعده الناس أنفاس العافية والرجاء.. فليس لهؤلاء الهلكى أولياء فى السماء، ولا فى الأرض.. فهم أعداء الله، وأعداء ملائكته، وأعداء رسله، وأعداء الإنسانية كلها..

زالوا فما بكت الدنيا لمصرعهم ... ولا تعطّلت الأعياد والجمع " (١)

---

١ . التفسير القرآني للقرآن ج ١٣/ ص ٢٠٠ والبيت المذكور ا ـ محمود سامي البارودي من قصيدة مطلعها :

هَلْ بالْحِمى عنْ سَرِيرِ الْمُلْكِ مَنْ يَزَعُ؟ هَيهاتَ ، قَد ذَهَبَ المتبوعُ والتَبَعُ
هَذِي «الْجَزِيرَةَ فَانْظُرْ هَلْ تَرَى أحَداً يَنْأى بِهِ الْخَوْفُ، أوْ يَدْنُو بِهِ الطَّمَعُ؟
أضحَتْ خَلاءً ، وكانَت قَبلُ مَنزِلَة لِلْمُلْكِ، مِنْهَا لِوَفْدِ الْعِزِّ مُرْتَبَعُ

المحور الثالث : اجتماع الضحك والبكاء

اجتمع الضحك والبكاء في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم :

الموضع الأول قوله تعالى " قوله تعالى " فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (التوبه ٨٢)

الموضع الثاني قوله تعالى " وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (النجم ٤٣)

الموضع الثالث قوله تعالى " وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (النجم ٦٠)

أما عن الموضع الأول : وهو قوله تعالى " " فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (**التوبه ٨٢**)

السياق والمقام :

فقد جاء الفعلان (الضحك والبكاء) في سياق تخلف المنافقين عن الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ([1])، وفرحهم بذلك وقعودهم في بيوتهم، وقالوا لإخوانهم كما حكى القرآن عنهم " لا تنفروا في الحر " فرد القرآن عليهم :" قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون "، ثم جاء قوله تعالى . تعقيبا على تهربهم هذا وقعودهم عن الجهاد : " فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون "

[1] ـ ينظر: التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي: دار الجيل الجديد – بيروت الطبعة: العاشرة – ١٤١٣ هـ ج١/ ص ٩١٤

سر مجئ الضحك والبكاء بصيغة الأمر :

والأمر بالضحك والبكاء هنا ليس أمرا على حقيقته؛ وإنما هو خبر في صورة أمر، فهو جملة إنشائية لفظا خبرية معنى على ما جاء في كتب التفسير قديما وحديثا ؛ جاء في تفسير البحر المحيط لأبي حيان: " وَالْأَمْرُ بِالضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ فِي مَعْنَى الْخَبَرِ، وَالْمَعْنَى: فَسَيَضْحَكُونَ قَلِيلًا وَسيَبْكُونَ كَثِيرًا، إِلَّا أَنَّهُ أُخْرِجَ عَلَى صِيغَةِ الْأَمْرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ حَتْمٌ لَا يَكُونُ غَيْرُهُ.([1])

وعلى هذا يكون زمن الضحك القليل هو عمرهم في الدنيا ، وزمن البكاء الكثير هو الآخرة ، وشتان بين الزمنين قِصَرا وطولا؛ جاء في تفسير البحر المحيط أيضا " وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا إِشَارَةٌ إِلَى مُدَّةِ الْعُمُرِ فِي الدُّنْيَا، وَلْيَبْكُوا كثيرا إشارة إلى تأييد الْخُلُودِ، فَجَاءَ بِلَفْظِ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ الْخَبَرُ عَنْ حَالِهِمْ "([2])

فهم " لن يهنأهم هذا الفرحُ، ولن يطول مقامهم في ظل هذه العافية التي هم فيها.. فما هي إلا أيامهم الباقية لهم في هذه الدنيا، ثم إذا هم

---

[1] . البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) المحقق: صدقي محمد جميل : دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ ج٥ ص٤٧٥، وينظر في ذلك أيضا : من القديم : تفسير الزمخشري سابق الذكر ج ٢/ ص ٢٩٦ ، وتفسير البضاوي سابق الذكر أيضا ج٣/ ص ٩١ وتفسير الألوسي : روح المعاني ج٥ ص٣٤٠ ومن الحديث : التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي سالف الذكر ج١/ ص٩١٤

[2] . السابق .

في العذاب الأليم الدائم، لا يُفَتَّرّ عنهم وهم فيه مبلسون. ([1]) " وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما يعدون .([2])

ومن بلاغة مجئ الخبر في صيغة الأمر في قوله " فليضحكوا قليلا " أنه يُشْتَمُّ منه التهديد والوعيد والويل لهؤلاء المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ([3]) ، وهذا التهديد وذاك الوعيد مرادان في هذا المقام؛ وذلك تكثيفا من السياق لتقبيح صورة المنافقين الذين ما فتئوا يتهربون من واجباتهم نحو الإسلام في ميادين الجهاد وفي كل مناسبة، متعللين ومتحججين بأسباب واهية مفضوحة ذُكِرتْ في أكثر من موضع من القرآن كما هو هنا، وكما في قوله تعالى في موضع آخر: "ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا " (الأحزاب ١٣) ولو جاء الأسلوب في الآية خبريا لفظا فقال " سيضحكون قليلا وسيبكون كثيرا " لفات هذا التهديد والوعيد وهما مرادان هنا على نحو ما أوضحنا .

---

[1] . التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب ج ٥/ ص ٨٥٧

[2] . في ظلال القرآن سيد قطب في تفسيره لهذه الآية

[3] . ينظر : إعراب القرآن المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ ج٢/ ص ١٢٩

والضحك في الآية هنا كناية عن الفرح والمتعة في دار الدنيا ، والبكاء كناية عن الحزن والهم والغم في الآخرة. ([١])

الإيجاز في الآية :

وعند ما يكون الضحك والبكاء هنا على هذه الكناية فإنه يفيد هذه المعاني المُكنَى عنها مُزادا على ذلك صريح الضحك والبكاء - وهو من صميم الإيجاز البليغ . ولوجاء التعبير بالفرح الذي هو مستتبَع الضحك، وبالحُزْن الذي هو مستتبَع البكاء لأفادهما فقط ، فجاء التعبير بما يفيد الوفرة في المعاني وبسطها وتكثيرها في (الضحك والبكاء)، وهو ما يتناسب مع التشنيع على المنافقين وما ينتظرهم من سوء المصير لكثرة جرائرهم وخبث طويتهم التي فُصِّلَت قبلَ وبعدَ هذه الآية ، ولخَّصها تزييل الآية في قوله تعالى " جزاء بما كانوا يكسبون ".

الطباق والمقابلة في الآية :

ومن بلاغة التعبير بالضحك والبكاء هنا ما يتجلى في أسلوب الطباق بينهما، ثم الطباق بين قليلا وكثيرا ، وبمجموع الطباقين هنا يتحقق أسلوب المقابلة التي تبين فداحة خسارتهم وبوارهم في الدار الآخرة بالعذاب اللا منتهِي والويل الخالد، مقابلة بمتعتهم العاجلة وهي سريعة الانقضاء والزوال في دار الدنيا، فالمقابلة تبرز المعاني المتقابلة في أتم وأجلى صورة؛ إذ الأضداد يُجَلِّي بعضها بعضا، وهذا يتحقق في الطباق الذي هو جزء مُكَوِّن للمقابلة : لكن تزيد المقابلة " أن المتلقي حين يدرك التقابل

---

[١] . ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٨/ ٥٦٣) وينظر التحرير والتوير ج ١٠ ص ٢٨٢ والبيت المذكور للشاعر أبي تمام .

بين المعنيين الأولين في المقابلة يُعِد نفسه لتلقي تقابلا آخر، فإذا ما تحقق له شيء من ذلك أحسَّ بشيء من المتعة؛ هي المتعة التي تأنسها عندما تتحقق توقعاتنا ، كما تنطوي المقابلة على قدرة فائقة على تمييز الأشياء وبيانها؛ تأمل هذا التعبير الدقيق عن التحول الذي عاشته الأمة بين مرحلتين :

يا أمة كان قبح الجور يسخطها ☆☆☆ دهرا ، فأصبح حسن العدل يرضيها

وكذا فإننا لا نملك إلا أن نعجب بأولئك الذين يقدرون على التصرف بمفردات اللغة والإتيان بها متناظرة متقابلة على هذا النحو الانتقائي الذي يشي بالقصد، ويشي عن حسٍ جمالي راقٍ" ([1])

تقييد الضحك بالقليل والبكاء بالكثير :

وتقييد الضحك بالقليل ، والبكاء بالكثير في هذه الآية هو مدار المعنى ومحوره وأبوه وأمه . فليس المراد " فليضحكوا وليبكوا " فليس لهذا من معنى ، وإنما المراد أن يقيد الضحك بالقلة ، والبكاء بالكثرة، لمزيد تحسرهم وتنديمهم على ما آل إليه أمرهم في الآخرة .

وجهة أخرى في الظرف الزماني للضحك والبكاء في الآية :

وهناك توجيه آخر في الآية يجعل زمان الضحك والبكاء (كليهما) في الدنيا ؛ وبيان ذلك أنه لما كان حال المنافقين مع الله بهذا السوء فينبغي إذن أن يطول ندبهم وعويلهم وحسرتهم على حالهم، فيكون

[1] . المفصل في علوم البلاغة عيسى العاكوب دار القلم . دبي الطبعة الثانية ٢٠٠٥ م ص ٥٦٣

ضحكهم قليلا وبكاؤهم كثيرا؛ جاء في تفسير ابن عطية : " ويحتمل أن يكون صفة حالهم أي هم لما هم عليه من الخطر مع الله، وسوء الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلا وبكاؤهم من أجل ذلك كثيرا، وهذا يقتضي أن يكون وقت الضحك والبكاء في الدنيا على نحو قوله صلى الله عليه وسلم، لأمته «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا» .وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما قال هذا الكلام أوحى الله إليه يا محمد لا تُقَنِّط عبادي" اهـ ([١])

وأرى أن هذا التوجيه في الآية مرجوح بالرأي الأول الذي يقرر أن ضحكهم القليل إنما هو في الدنيا في مقابل بكائهم الكثير في الآخرة . ؛ وذلك لعدة أسباب منها :

. أن الآية خُتِمت بما يفيد التهديد والوعيد في الآخرة " جزاءً بما كانوا يكسبون " والجزاء إنما هو في الدار الآخرة ، فالتهديد إذن منصرف إلى الضحك القليل في الدنيا في مقابل البكاء الكثير في الآخرة جزاء بما كانوا يكسبون .

. أنه لا يفيد مع المنافقين أن يُؤمروا بالضحك القليل والبكاء الكثير في الدنيا ندبا وعويلا على حالهم ، فماذا يفيدهم ذلك ؟ إنهم لن يتغيروا ولن تتبدل حالهم عن النفاق ومعاداة الإسلام، ولو كانوا ممن يتأتى أن يستجيبوا للأمر بالضحك قليلا والبكاء كثيرا لما كان هذا حالهم من الأصل، ولَمَا وصلوا لهذا التهديد والوعيد، لأنهم ساعتها سيكونون من أهل

[١] . تفسير ابن عطية ج ٣/ ص ٦٦

الاستجابة للأوامر الإلهية وهم في الواقع غير هذا وليسوا منه لا من قريب ولا بعيد .

ـ أن السياق قبل وبعد هذه الآية من سورة التوبة فاضح لجرائر المنافقين وكاشف لخباياهم وطواياهم ، بل ومنذر لهم بأشد ألوان الإنذار؛ فقبله تقول الآيات " اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠ التوبة) ،" وبعده نقرأ قوله تعالى : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ" (٨٤ التوبة) فالمناسب إذن أن يكون الأمر بالضحك والبكاء في هذا السياق منسجما مع ما قبله وما بعده من الآيات تهديدا ووعيدا ، وهذا لا يتأتى إلا أن يكون زمن ضحكهم هو الدنيا وزمن بكائهم هي الآخرة. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه .

****

الموضع الثاني من اجتماع الضحك مع البكاء :

قوله تعالى " وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (النجم ٤٣)

هذا الموضع هو الوحيد الذي جاء الضحك والبكاء فيه متعديين بالهمزة من بين مواضع الضحك والبكاء في القرآن كله، فهو رباعي متعدٍ بالهمزة ، وبقية المواضع جاءت لازمة ثلاثية من الفعل (ضحك) ، ويتجلى تعدي الفعل هنا في كونه مسندا إلى فاعله الأصلي وهو الله تعالى .

ضمير الفصل (هو) في الآية وسره البلاغي :

وقد جاء الإضحاك والإبكاء هنا في سلسلة من الأفعال المقصورة على الله تعالى وحده ،من خلال أسلوب القصر بصحبة ضمير الفصل (هو) ونقرأ ذلك في الآيات من سورة النجم : " .. وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى. وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى . وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى . وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى .وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى . وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى. وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (النجم ٣٦ . ٥٤)

فبالنظر إلى جملة الضحك والبكاء هنا نجدها جاءت ضمن ما أسند إلى الله تعالى من أفعال في هذه الآيات بأسلوب القصر عن طريق ذكر ضمير الفصل " هو " ونجد ضمير الفصل هذا قد تكرر في هذه الآيات مع الأفعال التي قد يُظَنُّ فيها الشركة مع الله تعالى، مثل الإماتة والإحياء ، والإغناء والإقناء ، فقد قصرها على الله تعالى قصر إفراد إضافي عن طريق ضمير الفصل (هو) ، أما ما لا يُظنُ فيه الشركة مع الله عز وجل ، فلم يُحْتجْ فيه إلى ذكر ضمير الفصل هذا ، مثل خلْق الذكر والأنثى وإهلاك عاد الأولى وإهلاك ثمود وقوم نوح .

وذِكْرُ ضمير الفصل " هو " في هذه الآيات طريقة متبعة في نظم القرآن عندما يراد قصر الفعل على فاعله، في مقام مظنة الشركة في الفعل، وما ليس موطنا لهذه المظنة فلا يتحتم فيه ذكر هذا الضمير، كما جاء في سورة الشعراء في قوله تعالى " الذي خلقني فهو يهدين والذي

هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين "(الشعراء ٧٨.٨٢)

فالخلق، والإماتة، والإحياء، والمغفرة: لا مظنة للشركة مع الله تعالى فيها؛ فلم يذكر معها ضمير الفصل ، أما الهدايه ،والإطعام ، والسُقيا، والشفاء من المرض ، لمَّا كانت مظنة الشركة مع الله فيها واردة ، فقد جاء بضمير الفصل قاصرا إياها على الله تعالى قصر إفراد .وهذا كله يصب في تمكين عقيدة التوحيد وترسيخها في القلوب.

وهذا الصنيع في حركة بناء الجملة القرآنية . إذن . ليس مجرد ألفاظ تُذْكُر أو تحذف أو تتقابل بقدر ما هي إسهام في بناء النفس المؤمنة من خلال حركة اللغة في الجملة القرآنية المعجزة .

وبالعودة إلى فِعْلَي الإضحاك والإبكاء نجدهما هنا قد جاءا مقصورين على الله تعالى لأنهما من الأفعال التي قد يُظَنُّ فيهما الشركة، حيث إن الإنسان في الظاهر هو الذي يَضحك أو يَبكي بمحض قدرته الذاتية ، أو أن غيره من الناس أو من المخلوقات هو مّنْ يُضحِكُه أو يُبْكيه .. وغير ذلك من الاعتبارات التي تجلب مظنة الشركة مع الله تعالى في هذا الأمر، فيجيء ضمير الفصل هنا ليجرد الإنسان من هذه القدرة ، وأنه مجرد مترجم فقط لما أودعه الله تعالى فيه من قدرة على هذين الفعلين ، بل إن الإنسان لا يملك مجرد المشاعر التي تدفع به إلى الضحك أو البكاء ، سواء أكان البكاء والضحك . كلاهما . في الخير أم في الشر ، وكل هذا من وحي ضمير الفصل في هذه الجملة؛ يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية "

" أَضْحَكَ وَأَبْكَى خلق قوتي الضحك والبكاء " ([١]) ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور " وَإِسْنَادُ الْإِضْحَاكِ وَالْإِبْكَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ خَالِقُ قُوَّتَيِ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ فِي الْإِنْسَانِ، وَذَلِكَ خَلْقٌ عَجِيبٌ وَلِأَنَّهُ خَالِقُ طَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي تَجْلِبُ أَسْبَابَ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ مِنْ سُرُورٍ وَحُزْنٍ "([٢])

ومن تجليات ضمير الفصل في إسناد فعلي الضحك والبكاء إلى الحق سبحانه وتعالى أن أسبابهما حتى في عالم الحيوان التي تَضْحك أو تَبكي إنما هي من الله وحده، وأنه هو وحده الذي خلق قوة الضحك عند هذا الحيوان أو قوة البكاء عند هذا الحيوان ، كما في القرد مثلا فهو الحيوان الوحيد الذي يَضحك، وكما في الجَمل فهو الحيوان الوحيد الذي يَبكي ، والإنسان هو المخلوق الوحيد من بين المخلوقات الذي جمع بين الضحك والبكاء([٣])

سر حذف مفعولي الإضحاك والإبكاء :

وقد جاء حذْفُ مفعولي الضحك والبكاء هنا ،لاعتبارات منها : أولا مراعاة الفاصلة القرآنية في السورة ، وثانيا : القصد إلى الفعل لا المفعول إذ المراد الحديث عن الضحك والبكاء كفعلين من الأفعال دون النظر إلى من يتلبس بهما من الأناسي؛ يقول في التحرير والتنوير " وَلَمْ يُذْكَرْ

---

[١] . الكشاف ج٤/ ص ٤٢٨

[٢] . التحرير والتنوير ج ٢٧/ ص ١٤٢

[٣] . ينظر تفسير العز بن عبد السلام (وهو اختصار لتفسير الماوردي) المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي . دار ابن حزم – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ج ٣ ص ٢٥١

مَفْعُولُ أَضْحَكَ وَأَبْكَى لِأَنَّ الْقَصْدَ إِلَى الْفِعْلَيْنِ لَا إِلَى مَفْعُولَيْهِمَا فَالْفِعْلَانِ مُنَزَّلَانِ مَنْزِلَةَ اللَّازِمِ، أَيْ أَوْجَدَ الضَّحِكَ وَالْبُكَاءَ." (١)

وثالث الاعتبارات ترجع إلى عمومية هاتين الظاهرتين في مطلق أحوال الناس عامة، وفي مطلق أحوال الإنسان الواحد ، فما يُضْحِك إنسانا قد يُبْكي إنسانا آخر ، بل ما يُبْكي إنسانا في وقت قد يُضحكه هو نفسه في وقت آخر . "وأنه هو أضحك وأبكى..وتحت هذا النص تكمن حقائق كثيرة . ومن خلاله تنبعث صور وظلال موحية مثيرة . . أضحك وأبكى . . فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء ، وهما سر من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركب المعقد ، الذي لا يقل تركيبه وتعقيده النفسي عن تركيبه وتعقيده العضوي، والذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه وتتشابكان وتتفاعلان في إحداث الضحك وإحداث البكاء (٢).

سر تقديم الضحك على البكاء في الآية :

وتقديم الضحك على البكاء يرجع إلى أمرين : الأول معنوي وهو أن الضحك محبب بالطبيعة إلى النفوس من البكاء ؛ وفي هذا التقديم "امتنان بزيادة التنبيه على القدرة ، والأمر الثاني لفظي وصوتي : وهو ما تحقق من وراء هذا التقديم من مراعاة الفاصلة في السورة على نسق واحد .(٣)

---

١ . التحرير والتنوير ج٢٧/ ص ١٤٣

٢ . في ظلال القرآن سيد قطب . في تفسيره لهذه الآية

٣ . بتصرف : التحرير والتنوير ج ٢٧/ ص ١٤٣

سر الطباق في الآية :

وجمْعُ الضحك مع البكاء هنا يحقق لنا صورة الطباق بظلاله وجمالياته ، فبضدها تتميز الأشياء ، والله تعالى وحده هو القادر على خلق الشيء وضده في مشاعر الإنسان فيَضْحك أو يَبْكي بما أودعه الله فيه من أسباب هذا أو ذاك ، ولا يملك أن يَضْحَك أو يَبْكي إلا بهذه الإرادة الإلهية المكنونة في مشاعره من هذه العملية المعقدة داخل النفس الإنسانية ؛ فقد يضحك من الشيء في لحظة ويبكي من نفس الشيء في لحظة أخرى " في غير جنون ولا ذهول إنما هي الحالات النفسية المتقلبة والموازين والدواعي والدوافع والاعتبارات التي لا تثبت في شعوره على حال!"([١])

والطباق بين الضحك والبكاء هنا يدفع بالإنسان للتفكر في أحوال نفسه العجيبة كيف يجمع بين جوانحه الأشياءَ وأضدادَها ؛ فيَضحك ويَبكي ، ويَشْقَى ويَسْعَد ، ويُساءُ ويُسَرُّ، ويأمُل ويَيْأَس ، وينشط ويَكْسَل، ويَعْزم ويتراخى، ويُحب ويَكْرَه.. إلى آخر هذه المتقابلات في نفْس الإنسان ، ذلك المخلوق العجيب .كغيره من سائر المخلوقات . وبتفكر الإنسان في هذه الأحوال العجيبة بين نفسه وجوانحه يزاد إيمانه ، وتصفو نفسه، ويزكو عقله، ويخر ساجدا باكيا لقدرة الله القاهرة المتصرفة في شئون الخلق ، ويُسلِمُ قياده لمن أودع فيه هذه الأشياء وأضدادها بلا منازع له فيها سبحانه وتعالى .

---

[١] . من تفسير الظلال في هذه الآية

وكما نلاحظ في سياق الآيات أن الطباق هنا ينتظم في سلسلة باهية من الطباقات الأخرى مثل . أمات وأحيا . وخلق الزوجين الذكر والأنثى . والخلق من نطفة إذا تُمْنَى (في الدنيا) في مقابل النشأة الأخرى . وأغنى وأقنى . وهذه السلسة المبهرة من الطباقات تلقي بمقادير هائلة من المتعة في النفس المتلقية لهذا البيان القرآني المعجز وهو يتنقل بالنفس الواعية بين الأشياء وأضدادها ، بما ينعكس جليا على نماء الإيمان في القلوب المؤمنة؛ فإن التفكر في القدرة الإلهية وهي تعمل عملها في هذه الأضداد في الوجود من حولنا . والتي لا قدرة أخرى تنازعها في هذه الأشياء (من خلال ضمير الفصل وغيره) . من شأنه أن يزيد من الإيمان وحلاوته في النفوس ؛ وهكذا يكون الطباق والمقابلة في ألفاظ لغتنا الخالدة بعامة وفي القرآن الكريم بخاصة ليسا مجرد ألفاظ تتقابل بل إيمان يُلْقَى في النفوس ويزيدها قربا من ربها من خلال التأمل في حركة التقابل والضدية بين ألفاظ اللغة .

الامتنان بالنعمة في نظم الآية :

بقيت جزئية مهمة في إسناد الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى وتكمن ـ فيما أرى . في الا متنان من الله تعالى على الخلائق بهذين الأمرين ، على وجه كونهما نعمة منه تعالى لا ينازعه فيها أحد كما عرفنا من خلال تركيب النظم في الآية " ، ووجه النعمة في الإضحاك واضح ظاهر ولا يحتاج إلى تدليل مادام الضحك في مساره الإنساني الصحيح ولم يكن سخرية من أحد أو شماتة أو استهزاء ونحو ذلك ، أما البكاء فليس في كل الأحوال يكون شرا ، بل هو في أحيان كثيرة يكون وجها من وجوه النعم على الحياة والإنسان ، وقد رأينا في هذا البحث أن البكاء جاء صفة

مدح للمؤمنين وذلك في قوله تعالى " ويخرون للأذقا يبكون(الإسراء ١٠٩) " وفي قوله تعالى " إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا(مريم ٥٨)" فأي خير بعد أن يكون البكاء لوحة شرف يتشرف بها المؤمنون في كتاب الله، بل إن القرآن نعى على المشركين عدم بكائهم عند سماعهم القرآن في قوله تعالى في سورة النجم " أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون. (النجم : ٦٠) " ، وما أعظم وأشرف أن تكون العين الباكية من خشية الله من العينين اللتين لا تمسهما النار عن كما جاء في حديث " ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " ([1])

و " البكاء مثله مثل الضحك فهو يعبر عن مكنون مشاعرنا وله قيمة هامة في التواصل لأنه يخبر المحيطين بنا بمشاعرنا، كما أنه مفيد للصحة فهو يجعلنا نُفْرِغُ مشاعرنا ونبوح بها ونفضفض من خلالها

[1] ـ سنن الترمذي ت شاكر كتاب: سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)

الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصرالطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م عدد الأجزاء: ٥ أجزاء (ج ٤/ ص ١٧٥ [حكم الألباني] : صحيح وَفِي البَاب عَنْ عُثْمَانَ، وَأَبِي رَيْحَانَةَ. وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ شُعَيْبِ بْنِ رُزَيْقٍ.

للآخرين عما تئن به نفوسنا من هموم وآلام ، ومن ثم فإن كبت الدموع ليس أمرا صحيا.

وأشار الطبيب النفسي والأستاذ بجامعة كومبلوتنسي دي مدريد، أنطونيو كانو، إلى أن "البكاء يمكن أن يكون وسيلة علاج لأنه يخفف التوتر كما أنه يمكن أن يزيد الدعم الاجتماعي لأنه يثير تعاطف الآخرين.([1]).

" إن القدرة على البكاء لهي كذلك شكل بشري متفرد آخر من الاستجابة العاطفية .. إن الفكرة القائلة " إن بكاء جيدا يمكن أن يكون مفيدا لنا لهي فكرة جد قديمة ، والآن لها صحة علمية؛ إذ إن البحوث الحديثة في موضوع الدموع قد بينت أن الدموع تحتوي على مادة طبيعية تقضي على الألم تدعى إنكافالين : إن هذه المادة الكيميائية تساعدك على الشعور أنك أفضل حالا بمكافحة الحزن والألم ، وبوسع البكاء مضاعفة كميات الإنكافلين التي تنتجها، وتحريرك من العواطف المكبوتة أو الحبيسة . عندما يكون أحد قد أصيب بصدمة، أو هو جد مكتئب أو هو يعاني ألما كثيرا ، فإن الرد الطبيعي أن يبكي . إن دموع العاطفة تساعد كذلك الجسم على التخلص من الفضلات الكميائية السامة، ذلك بأنه تبين أنها تحتوي على بروتين أكثر من الدموع التي تنجم عن الرياح الباردة أو المثيرات الأخرى، فإذا لم تزرف أية دموع لأنها حُبِسَت، فإن هذه

[1] ـ من مقال بعنوان البكاء أنواع.. تعرف عليها وعلى كيفية علاجها من الموقع الالكتروني (قناة العين الإحبارية) منشور بتاريخ الثلاثاء ٩/١/٢٠١٨ ٠٤:٣٥ م بتوقيت أبوظبي

الفضلات تبقى في الجسم !!! يبدو أن الناس يستمتعون بالبكاء معا مثلما يستمتعون تقريبا بالضحك معا . اهـ ([1])

بعد هذا التأصيل القرأني والنبوي للجانب الإيجابي في عملية البكاء ، وبعد هذا الاستطراد العلمي . الذي طال بعض الشيء . في فوائد البكاء والدموع . نرى إلى أي حد كان الامتنان من الله تعالى على خلائقه بأنه هو وحده الذي منحهم القدرة على البكاء والضحك وتلك نعمة تذكر فتشكر.

كل ذلك من وحي إسناد الإبكاء والإضحاك إلى تعالى وحده وتأكيد ذلك بأكثر من مؤكد في هذا الموضع " وأنه هو أضحك وأبكى " فهناك ضمير الفصل "هو " وهناك التوكيد بأنَّ، وهناك التوكيد بماضوية الفعلين " أضحك " و " أبكي" .

****

[1] . لغة الجسد . محمد المنسي . دار صفحات . للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ٢٠١٨ ص ١٥٧، ١٥٨

الموضع الثالث من اجتماع الضحك مع البكاء :

قوله تعالى " أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ . فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (النجم : ٥٩ .٦٢)

ينطلق حديثنا في هذا الموضع من هذا لاستفهام الإنكاري التوبيخي للمشركين في قوله تعالى " أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ» ..

والمراد بـ " هذا الحديث " – الإشارة إلى الحديث عن هلاك الأمم التي كفرت برسلها، والحديث عن اليوم الآخر في قوله " وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى . وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى . هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى . أَزِفَتِ الْآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (النجم ٥٠ .٥٨)

" فالمشركون إذا سمعوا هذا الحديث عن هلاك الأمم التي كفرت والحديث عن قرب يوم الحساب والجزاء، عجبوا لهذا، واستنكروه، وجعلوه حديث سخرية واستهزاء بينهم.. وفى قوله تعالى: «أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ» إنكار على هؤلاء المكذبين بالبعث والحساب أن يتلقوا الحديث عن هذا اليوم الآخر والنذر التي تنذرهم به، وتحذرهم لقاءه– أن يتلقوا هذا غير مكترثين به، ولا ملتفتين إليه، ولو عرفوا ما يَلْقَى الناسَ في هذا اليوم من أهوال، وما أُعِدّ للظالمين والضالين من عذاب– لو عرفوا هذا، لكثر البكاء، وقلَّ الضحك، بل لما كان إلا البكاء المتصل، والوجوم الدائم.. خوفا من لقاء هذا اليوم العظيم! .. وقوله تعالى: «وَأَنْتُمْ سامِدُونَ» أي وأنتم غافلون فى صلف وكبر.. والسامد. هو

البعير الذي يرفع رأسه، كأنه يبحث عن شيء في السماء، ولا شيء! .. وقوله تعالى: «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا» – هو تعقيب على الاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى: «أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ..» أي إنكم أيها المكذبون بهذا الحديث، المستهزءون الساخرون منه، توردون أنفسكم موارد الهلاك، وإنكم إذا أردتم النجاة والخلاص، «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا» أي فاخضعوا لجلال الله، واعبدوه، فهذا ما ينبغى أن يكون موقف المخلوق من خالقه، ولاء، وطاعة، وحمد، وتسبيح، وعبادة." اهـ([١])

الإنكار والتوبيخ في الاستفهام :

وقد جاء الاستفهام الإنكاري هنا توبيخا على عدة أمور تُشَكِّل كلُها حِزمة واحدة من قُبْح موقفهم من (هذا الحديث) عن اليوم الآخر وعن النذر التي تحدثت عنها الآيات قبلاً؛ من إهلاك الأمم السابقة المكذبة بأنبيائها ، فالتوبيخ جاء على أنهم يعجبون من هذا الحديث المشار إليه ، وأنهم يضحكون سخرية وتهكما ، وأنهم لا يبكون ، وأنهم سامدون أي مستكبرون .

وضحِكُهم، وعدمُ بكائهم هنا، جاءا ضمن ما أنكره القرآن عليهم ، وقد كان يمكن أن يستغنى بعَجَبِهم فقط من (هذا الحديث) كسبب للإنكار عليهم ، ولكنهم جمعوا بين عَجَبِهم، وبين ضَحِكهم سخريةً واستهزاء، وبين عدم بكائهم خوفا وخشية من هذا اليوم الآزف القريب ، وإلى هذا الحد كان يمكن أن يكتفى القرآن بوصمهم بهذه الصفات ، ولكنه أكد صلفهم وغرورهم بقوله وأنت سامدون أي مستكبرون ، يقول صاحب

[١] . التفسير القرآني للقرآن ج ١٤/ ص ٦٢٥

نظم الدرر في مناسبة الضحك والبكاء والسمود هنا : " ولما كان المعجَب قد يُمسك نفسه عن الضحك، بيَّن أنهم ليسوا كذلك فقال: {وتضحكون} أي استهزاء ، تجددون ذلك في كل وقت مبتدأ ضحككم منه وهو بعيد من ذلك، ولما كان إنما يورَثُ البكاءُ بكونه نزل بالحزن قال: {ولا تبكون } أي كما هو حقُ مَنْ يَسمعُه، ولما كان البكاء قد يكون على التقصير في العمل، بيَّن أن الأمر أخطر من ذلك فقال: {وأنتم} أي والحال أنكم في حال بكائكم {سامدون } ([1])

والذي يؤكد أن الإنكار منصب على هذه الصفات مجتمعة أن كلا من العَجَبِ، والضحِكِ ،وعدمِ البكاء ، متعلقٌ بـ " من هذا الحديث " ويطلبه([2])

وقد جمع الإنكارُ عليهم هنا بين الضَحِك وبين وعدم البكاء ؛ مع أن ذكر أحدهما يُغْني عن ذكر الآخر؛ إذ إن أحدهما مثبت والآخر منفي فكأنهما شيء واحد مكرر؛ ولكن النظم القرآني هنا ذكر الأمرين نصًّا؛ لأن جريمتهم أنهم جمعوا بينهما معا (الضحك، وعدم البكاء) فقد كان يمكن أن يضحكوا من(هذا الحديث) في وقت ، ثم تمر عليهم لحظة إفاقة أو تراجع فيبكون منه عظة وعبرة . مثلا . ولكن ذلك لم يحدث منهم ، فجمعوا بهذا بين الخطيئتين (الضحك : استهزاء وسخرية من ناحية ، وعدم البكاء جحودا وقسوة قلب من ناحية أخرى) .

---

[1] . نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج١٩/ ص ٨٣

[2] . ينظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق عدد الأجزاء: ١١ ج ١٠/ص ١١٥

سر تقديم الجار والمجرور في الاستفهام:

وفي تقديم الجار في قوله " أفمن هذا الحديث "" تعظيم لشأن " هذا الحديث " وبيان خطره ، بأن جعله أسلوب قصر، وكأن المعنى : أن هذا الحديث خصوصا ما كان يليق منكم أن تقابلوه بكل هذه الصفات المنكورة؛ يقول الطاهر بن عاشور: " وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ لِلْقَصْرِ، أَيْ هَذَا الْحَدِيثُ لَيْسَ أَهْلًا لِأَنْ تُقَابِلُوهُ بِالضَّحِكِ وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ وَلَا لِأَنْ لَا يَتُوبَ سَامِعُهُ، أَيْ لَوْ قَابَلْتُمْ بِفِعْلِكُمْ كَلَامًا غَيْرَهُ لَكَانَ لَكُمْ شُبْهَةٌ فِي فِعْلِكُمْ، فَأَمَّا مُقَابَلَتُكُمْ هَذَا الْحَدِيثَ بِمَا فَعَلْتُمْ فَلَا عُذْرَ لكم فِيهَا" . ([١])

سر التعبير بصيغة المضارع في فعلي الضحك والبكاء :

وجاء الضحك والبكاء هنا بصيغة المضارع في إشارة إلى أن هذين الأمرين(الضحك، وعدم البكاء) كانا يتجددان ويتكرران منهما كلما كانوا يسمعون لحديث القرآن عن هلاك ومصارع الأمم التي كذبت برسلها وأنبيائها ومِنْ الحديث عن الساعة وأهوالها وقد " أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة "، وفي هذا التجدد والاستمرار مزيد من التشنيع عليهم وتوبيخهم على ما آل إليهم أمرهم من السخرية والضحك استهزاء بالقرآن، و من قسوة القلوب وجمود عينهم عن البكاء خشية لله وخوفا منه .

وقد بَطَّن هذا التجدد والتكرار بما هو أشد توبيخا لهم بالتعبير بالاسمية التي تفيد الدوام والثبوت في جملة " وأنتم سامدون " ليفيد أن

[١] . التحرير والتنوير ج٢٧/ ص١٦١

سمودهم ـ والسمود معناه الاستكبار والغرور واللهو والإعراض والغفلة ـ ([1]) داء متأصل في طبائعهم اللئيمة ، وجبلة راسخة ثابتة دائمة في نفوسهم الكارهة للحق ، وهذا يزيد من قتامة صورتهم ونكارتها لقبح موقفهم، وسخريتهم واستهزائهم بالقرآن .

و (هذا الحديث) المشار في قوله تعالى " أفمن هذا الحديث .. " جد عظيم يُلقي على كاهل الناس واجبات ضخمة وفي الوقت ذاته يقودهم إلى المنهج الكامل . فمم يعجبون ؟ ومم يضحكون ؟ وهذا الجَدُّ الصارم ، وهذه التبعات الكبيرة ، وما ينتظر الناس من حساب على حياتهم في الأرض . . كله يجعل البكاء أجدر بالموقف الجد ، وما وراءه من الهول والكرب ."([2])

وبعد ..

فقد جاء في تفسير الألوسي: " وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي شيبة وهنَّاد وغيرهم: لما نزلت هذه الآية أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ما ضحك النبي صلّى الله عليه وسلم بعد ذلك إلا أن يتبسم، ولفظ عبد بن حميد «فما رُئِي النبي عليه الصلاة والسلام ضاحكا ولا مبتسما حتى ذهب من الدنيا» وفيه سد باب الضحك عند قراءة القرآن ولو لم يكن استهزاء والعياذ بالله عز وجل.اهـ "([3])

---

[1] . ينظر البحر المحيط في التفسير ج١٠ص ٢٩

[2] . في ظلال القرآن .عند تفسيره هذه الآية .

[3] . روح المعاني ج ١٤ ص٧١

وفي تفسير ابن عطية : " وروى سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذا القرآن أنزل يخوف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا» ذكره الثعلبي" ([١])

****

وإلى هنا أصل إلى نهاية هذا البحث على ما فيه من تقصير وفقر علمي بيّنٍ واضح ، مقرا ومؤكدا على أن الموضوع لم يزل في حاجة إلى مزيد من الجد والإقدام والصبر والمثابرة لاستخراج كنوزه البلاغية التي لا تزال مطوية داخل الموضوع الزاخر بها .. وما قلته من وجهات بلاغية عبر هذه الصفحات القلائل لم يكن إلا رذاذا من بحر زاخر موار بالكنوز واللآلئ البلاغية في هذا الموضوع ، كما هو شأن كل دراسة تقدَّم في بلاغة الكتاب العزيز .. واللهَ أسأل أن يعفو عن ذللي ويغفر لي جرأتي على كتابه العزيز؛ فلا زلنا طلاب علم نحبو على موائد بلاغة القرآن الخالد نخطئ ونصيب وخطأنا أقرب من صوابنا .

والله تعالى غافر الذلات وهو نعم المولى ونعم النصير .

[١] . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)
اتحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ ج٥/ص ٢١٠

نتائج البحث :

لا شك عندي أن هذه الدراسة المتواضعة لم توف كل الوفاء بما كان منوطا بها في هذا الموضوع القرآني ؛ إذ طبيعة الدراسة البلاغية بوجه عام أنها لا تقول كل ما يتعلق بالبحوث البلاغية ، صغرت هذه البحوث أم كبرت ، وإذا كانت الدراسة البلاغية في القرآن فلا شك تكون أكثر عجزا وأضعف حالا من أن تحيط بالموضوع من كل جوانبه ، ولذا فهي تقدم ما تطيقه نحو الموضوع القرآني وهي تتوارى خجلا من القصور البواح في جنبات الدراسة .

وهذا الجهد الكليل الذي قدمتُه خلال هذه الدراسة واحد من هذه الجهود الخجلة وهي تقدم نفسها بين يدي العلماء الذين يقيمون هذا العمل ويقومون معوجه .

وعلى قدر ما أتيح لي من جهد وطاقة في هذه الدراسة ، أقدم ما لاح لي من نتائج خلال هذا البحث :

ـ جاء الضحك منفردا في القرآن في سبعة مواضع كما أوضحنا ، موضع واحد فقط جاء بالفعل الماضي (وامرأته قائمة فضحكت) واثنان باسم الفاعل ، (فتبسم ضاحكا) (ضاحكة مستبشرة) وأربعة مواضع جاءت بالفعل المضارع (وكنتم منهم تضحكون) (فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) ولكلٍ دلالته البلاغية في سياقه .

. جاء الضحك منفردا في القرآن في أربعة مواضع واحد منها بصيغة الماضي (قما بكت عليهم السماء والأرض) واثنان بالفعل المضارع (عشاء يبكون) (ويخرون للأذقان يبكون) وواحد بصيغة الجمع (خروا سجدا وبُكيا) جمع باكٍ ، ولكل صيغة من هذه الصيغ دلالتها البلاغية في موضعها وسياقها .

ـ جاء الضحك مع البكاء في ثلاثة مواضع " واحد منها بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) وواحد بالفعل الماضي المتعدي بالهمزة (أضحك وأبكى) وواحد منها بالمضارع (وتضحكون ولا تبكون) ولكلٍ دلالته في موضعه كما رأينا .

ـ بمراجعة مواضع الضحك كلها وهي عشرة مواضع نجد تنوع الأغراض التي جاء فيها الضحك إلى السخرية وذلك في خمسة مواضع ، وإلى تنعيم أهل الجنة في موضع واحد ، وإلى التهديد والوعيد في موضع واحد ، وإلى مقام الإعجاب بحديث النملة مع قومها في موضع واحد، وإلى إظهار قدرة الله تعالى وباهر صنعه في قوله " أضحك وأبكى". وفي مقام البشارة بالولد في قوله " فضحكت فبشرناها "

. جاءت أفعال الضحك والبكاء كلها لازمة من الفعل الثلاثي " ضحك " أو" بكى "، إلا في موضع واحد فقد جاء رباعيا متعديا بالهمزة وهو قوله تعالى " وأنه هو أضحك وأبكى " وقد بينتُ سر هذا التعبير و مستتبعاته في موضعه .

. جاء التعبير بالضحك والبكاء في مواضعه كلها عاكسا لبلاغة القرآن في الإيجاز إذ إن كلا من الضحك والبكاء له توابع من المعاني التي تنبثق عنه لكنه اختزلها بالتعبير عنها بالضحك أو البكاء .

. أدى المجا ز دورا مهما في توجيه قوله تعالى " فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين "

ـ .جاء الضحك والبكاء في القرآن مقترنَيْن بما يناسبهما من بيئة الألفاظ والمعاني مثل الاستبشار والإسفار مع الضحك في سورة عبس والخرور والسجود والبكاء في قوله " خروا سجدا وبكيا " والخرور للأذقان والخشوع في قوله " ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا " والسخرية في قوله " فاتخذتموهم سخريا وكنتم منهم تضحكون " مما حقق لنا فن مراعاة النظير في أكثر من موضع وكان لهذا بلاغته في صحبة الضحك أو البكاء .

. كان لأسلوب القصر عن طريق ضمير الفصل دور مهم في توجيه بلاغة الضحك والبكاء في قوله تعالى " وأنه هو أضحك وأبكى " وأكدت الدراسة كيف جاء أسلوب القصر هنا مرسِّخا لتوحيد الله تعالى في النفس من خلال تفرده عز وجل بهذين الأمرين ومباعدا لشبهة أن يكون الضحك أو البكاء بمعزل عن إرادة الله؛ حتى ولو كان الإنسان في الظاهر هو من يمتلك القدرة على الضحك أو البكاء ،. وبينت الدراسة في هذا الصدد امتنان الله تعالى على الإنسان بنعمة الضحك أو البكاء من خلال الوقوف عند دلالة أسلوب القصر في هذا الموضع ومن خلال مظاهر التوكيد الأخرى في نظم الآية .

. كان من الطبعي أن يأخذنا محور اجتماع الضحك مع البكاء مباشرة إلى أسلوب الطباق والمقابلة بما لهما من دلالات بلاغية ، وقفنا عندها للكشف عن جماليات هذين الفنين البديعين وأسرارهما ، كما في قوله تعالى " فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا" و قوله تعالى " وأنه هو أضحك وأبكى "

وبيَّن البحث كيف يُسهم هذان الفنان البديعيان في ترسيخ الإيمان في القلب وزيادة الهدى في النفس من خلال التأمل في المعنى وما يقابله في النظم القرآني.

ـ كان لحذف المفعول في قوله تعالى " وأنه هو أضحك وأبكى " دلالة بلاغية في عموم المعني وإطلاق الضحك والبكاء مجردَين عن مفعولهما ، وكان لهذا دور مهم أيضا في زيادة الهدى داخل النفس المؤمنة من خلال التأمل في حذف المفعول هذا ، وبيَّن البحث في أكثر من مرة أن حركة النظم داخل الجملة القرآنية ليست مجرد ذكر أو حذف أو توكيد أو ألفاظ تتقابل أو تتناسب بقدر مايكون كل ذلك إسهاما في ترسيخ حقيقة الإيمان في النفس المؤمنة بربها الذي أنزل هذا الكتاب المعجز بهذه الكيفية المعجزة من حركة النظم وطريقة التركيب في الجملة القرآنية .

ـ بينت الدراسة من خلال النظم في آيات الضحك والبكاء كيف يكون كلاهما نعمة من الله تعالى على الإنسان لأنه لا يَستغنِى عنهما في تقلبات الحياة ، عندما يوظفهما الإنسان توظيفا إنسانيا سليما .

ـ ناقشت الدراسة الآراء المرجوحة التي لا تخدم الفكرة البلاغية في بعض المواضع مثل تفسير الضحك بالحيض والطمث في قوله تعالى " فضحكت فبشرناها " واستبعدت الدراسة هذا الرأي بلاغيا ، كما بينت في هذا الصدد الأسباب المرجوحة للضحك في هذه الآية (غير البشارة بالإنجاب والولد) ، وكيف أن هذه الأسباب مرجوحة بلاغيا بالإضافة إلى كونها مرجوحة باعتبارات أخرى، وكذلك ماجاء من رأي مرجوح في قوله تعالى " فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا " من أن زمن الضحك والبكاء كليهما في الدنيا . وردَّتُ الدراسة على هذا الرأي بلاغيا وبالحجة والعقل .

ـ في المواضع التي اجتمع فيها الضحك والبكاء ، جاء الضحك مقدما على البكاء لأن الطبيعة الإنسانية تميل في فطرتها إلى المباهج والمسرات وكل ما يجلب لها الفرح والسرور بما يبعث على الضحك ، أكثر مما تميل إلى المُحزِنات المُبكيات وما يجلب لها الهموم والآلام . ولا يختلف هذا التأويل باختلاف نوع الضحك (المحمود منه أو المذموم) ؛ فنحن نتكلم هنا عن مطلق الطبيعة الإنسانية ؛ ومن هنا وجدنا في تقديم القرآن الضحك علي البكاء في مواضع اجتماعهما تجاوبا وانسجاما مع هذه الطبيعة الإنسانية .

****

هذه بعض النتائج التي تيسر لي استخراجها من هذه الدراسة المتواضعة ، وفي البحث نتائج أخرى مبثوثة في تضاعيفه لم يسعفني الوقت لالتقاطها من هنا وهناك في جنبات الدراسة .

وأنبه مرة أخرى أني لا أزعم الوفاء بكل مقتضيات البحث في هذه الدراسة وأن الموضوع لا زال مطويا على كنوز بلاغية لم أستطع سبر أغوارها ، وحسبي أنني اجتهدت قدر طاقتي للإمساك بأطرافها، علَّ من يقرأ هذا البحث من الباحثين الأكثر جدية ونشاطا مني أن يأخذ بهذه الأطراف ويكمل الطريق ليستخرج لآلئه التي عجزتُ عن الوصول إليها نتيجة مداهمة الوقت وضيق الظروف التي حعلتني أتعجل في إتمام البحث في هذه الصورة المتواضعة . والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل

مراجع البحث

١. الإبانة في اللغة العربية سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحاري تحقيق: د. عبد الكريم خليفة د. نصرت عبد الرحمن – د. صلاح جرار – د. محمد حسن عواد – د. جاسر أبو صفية وزارة التراث القومي والثقافة – مسقط – سلطنة عمان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩

٢. -الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم .د محمد الأمين موسى أحمد إصدار دار الثقافة والإعلام . حكومة الشارقة . الطبعة الأولى ٢٠٠٣

٣. إعراب القرآن :أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ

٤. إعراب القرآن وبيانه إعراب القرآن وبيانه : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ) ـ دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥هـ

٥. آل حم الشورى والزخرف والدخان دراسة في أسرار البيان د محمد أبو موسى مكتبة وهبة الطبعة الأولى ٢٠١٠

٦. البحر المحيط في التفسير البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ

٧. التحرير والتنوير محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر ١٩٨٤هـ

٨. تفسير الألوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)المحقق: علي عبد الباري عطية: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

٩. تفسير ابن عطية المسمى المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد . دار الكتب العلمية – بيروت . الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ .

١٠. تفسير ابن كثير المسمى بتفسير القرآن العظيم ا: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة . دار طيبة للنشر والتوزيع لطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م .

١١. تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي : دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

١٢. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي : دار طوق النجاة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ .

١٣. تفسير الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) دار الكتاب العربي بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

١٤. التفسير القرآني للقرآن المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) : دار الفكر العربي – القاهرة ـ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ

١٥. تفسير المراغي : أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م

١٦. تفسير المنار محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠م

١٧. التفسير الواضح محمد محمود حجازي الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت الطبعة: العاشرة

١٨. تفسير العز بن عبد السلام (وهو اختصار لتفسير الماوردي) المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله بن

١٩. تهذيب اللغة محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)تحقيق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م

٢٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق

٢١. دلائل الإعجاز شرح الدكتور محمد إبراهيم شادي ط دار اليقين الطبعة الأولى ٢٠١٠

٢٢. سنن البيهقي في شعب الإيمان المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

٢٣. سنن الترمذي ت شاكر كتاب: سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥

٢٤. شروح التلخيص ط دار الإرشاد الإسلامي بيروت بدون تاريخ.

٢٥. . صحيح البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر دار طوق النجاة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

٢٦. علم البديع للدكتور محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة الطبعة الأولى ٢٠١٩ تعليق على الحواشي دكتور محمود توفيق سعد.

٢٧. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية تأليف نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ) دار ركابي للنشر – الغورية، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م

٢٨. في ظلال القرآن سيد قطب دار الشروق

٢٩. كتاب العين أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي

٣٠. اللباب في علوم الكتاب المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ) تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م

٣١. لسان العرب محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

٣٢. لغة الجسد . محمد المنسي . دار صفحات . للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ٢٠١٨

٣٣. مختار الصحاح زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)

٣٤. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) المكتبة العلمية – بيروت عدد الأجزاء: ٢ في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد٥

٣٥. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها د. محمد حسن حسن جبل : مكتبة الآداب – القاهرة الطبعة: الأولى، ٢٠١٠ م

٣٦. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة

٣٧. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) : دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

٣٨. المفصل في علوم البلاغة عيسى العاكوب در القلم دبي ط الثانية ٢٠٠٥

٣٩. مقال بعنوان البكاء أنواع.. تعرف عليها وعلى كيفية علاجها من الموقع الالكتروني (قناة العين الإحبارية) منشور بتاريخ الثلاثاء ٩/١/٢٠١٨ ٠٤:٣٥ م بتوقيت أبوظبي

٤٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة عدد الأجزاء :